

إبراهيم عبد الهادي الملازي

من النافذة

الغدا

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



اقرا

[٨٣]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : منال بدران

ابراهيم عبدالقادر المازني

من النافذة

الطبعة الرابعة



دار المعارف



من النافذة

١

جلست ذات صباح في غرفة صغيرة ذات شباك عريض
يطل على الطريق ، وهي غرفة أوترها في أول النهار قبل أن تعلو
الشمس ويرفع النهار ، صيفاً وشتاء ، وفي وسعي — وأنا قاعد
على الطارقة (الكنية) — أن أوارب الشباك فأرى ولا أرى . وأظل
فيها حتى أدعى إلى الطعام أو بأني أن أنتقل إلى مكتبي أو أخرج
إلى عملي . وأكثر ما يطيب لي فيها الجلوس في أيام الأجازات
أو البطالة ، أو ساعات الكسل والفتور ، ومزيتها أنها في ركن
قصي من البيت — أو الشقة على الأصح — وإن كانت على
الطريق ، وأني أكون فيها كالراهب المنقطع في صومعته ، سوى
أنني لا أتعبد إلا بالنظر إلى خلق الله من الفرجة بين مضاعى
الشباك الخشبي ؛ وتتعدد المناظر تحت عيني ، وتنوع وتتوالى
فتعجبني ، فلا أشبع من النظر ، فلو شئت — أو استطعت —
لظلمت هكذا جاثياً على ركبتي — فما أستطيع أن أترجع لهيضم
في إحدى الساقين — إلى آخر العمر ، أو إلى أن يردني السغب
كخادم ابن الرومي .

وقد أصبحت - لطول مقامى فى هذا البيت - أعرف كل من يقف - أو تقف - على رصيف الترام انتظاراً لقدمه ؛ وبلغ من ذلك أن الأمر يختلط على أحياناً حين ألقى بعضهم أو بعضهن فى الطريق ، فأهم بالقاء التحية ، وأرد نفسى بجهد إثارةً للحيطه ؛ ولولا أناة اعتدتها ، واحتشام رضى نفسى عليه ، لما وسعنى أن أكبح نفسى عن التطفل بالتحية على قوم يبدوون لى من المعارف ؛ ولا أبدو لهم إلا غريباً سمجاً .

ولست أعرف من هؤلاء وأولئك الذين صاروا إخواناً لى وهم لا يدرون ، إلا ما يفيدته النظر ، على أنى وأنا أراهم ، وأجعل بالى لى ثيابهم ومبلغ عنايتهم بها ، وما أراه عندهم من ضروبها ، وللى حركاتهم ومشياتهم وطريقتهم فى الكلام ، وشمائلهم وسكونهم أو ضجرجهم إذا أبطأ عليهم الترام ، أو حال الزحام بينهم وبين ركوبه ، أقول لى وأنا أراقبهم من حيث لا يشعرون ، قد ألفت لكل واحد وواحدة منهم قصة ، فلو سألتنى من هذا أو هذه ؟ لما نلعثمت أو ترددت وأنا أذكر لك اسمه أو اسمها الذى اخترته ، وأسرد عليك ما أعرفه - ظناً أو تخيلاً - عن حياته أو حياتها . ولست أجد مشقة فى تصوير حال كل من هؤلاء ، ولكنى أجد عسراً شديداً فى اختيار الأسماء الموافقة لهم ، أو التى توحى وجوههم بها وهيئاتهم وما يتبدى لى من أحوالهم .

وهذا أشق ما أتكلف . وأراني أحتاج أحياناً أن أكتب حروف
 الهجاء على ورقة ، ثم أروح أولف منها الأسماء المطلوبة ، وقلمها
 أرضى عن اختياري في هذا الباب . وما أكثر ما أنسى ما سميت
 به هؤلاء ، فأكد خاطري وأجهد ذاكرتي فتخونني ولا تسعفني .
 وأحس كأن هؤلاء ليسوا بآناس حقيقيين ، وإنما هم من
 مخلوقات الخيال ، لأنهم لا أسماء لهم أعرفهم بها ، أو أطلقها
 عليهم ، والمرء بغير اسم لا يكون في إحساس القلب ونظر العقل
 أكثر من فرد من جنس ، لأنه لا يتميز باسم يستقل به وينفرد ،
 بالغة ما بلغت شخصيته الخاصة من القوة . أقرى الأحرف
 مجتمعة في اسم لها ... ماذا ؟ ! . لا أدري ، ولكني أذكر
 أحياناً للعقاد من قصيدته : « كأس على ذكرى » يقول
 فيها :

هاتها باسم حيبي قاتل الله عدائي
 آه لو تعلم ماذا في اسمه من عزمات
 أترى الأحرف فيه غيرها في الكلمات
 تنكر السحر وهذا بعض أسرار اللغات

(وقد حذف الأستاذ العقاد هذا البيت الأخير — ولعله سقط
 سهواً — حين نشر الأجزاء الأربعة الأولى من ديوانه في مجلد
 واحد سنة ١٩٢٨) .

وقد أخذت عيني اليوم فتاة أسميها زكية — لا أدري لماذا — ولكنها تبدو على حال غير حالها المؤلف ، فإن عهدي بها أنها تلميذة ، وقد اعتدت أن أراها في الشتاء الماضي ترتدي زي التلميذات وتحمل حقيبة الكتب ، أما اليوم فإنها تلبس السواد وتحمل في يدها شيئاً ملفوفاً في جريدة قديمة ، فأنا أرجح أن يكون أبوها قد انتقل إلى الدار الأخرى . مسكينة !

وقاتل الله هذه المنايا ورميها حبات القلوب على عمد ، أو عفواً ، فإن الأمرين سيان .

وقد تركت المدرسة ولا شك ، بعد أن فقدت عائلها وأصبحت لا قبل لها بنفقات التعلم . ومن يدري ماذا كانت خليقة أن تكون لو كان قد أتيح لها أن تواصل الدرس . ولكن متوجهها أخذ عليها فهي تكف عن التحصيل ، ويسوء حال أسرتها — فإن الثوب يبدو رثاً — فيدفعها شظف العيش إلى العمل ، أي نعم العمل ، فإني أراها تصدق عن الترام رقم ٣ وتركب الآخر الذي رقمه ٣٣ ، وهو يذهب إلى إمبابة ، وهناك وفي الطريق إلى هذه القرية مصانع شتى ، ولا شك أن هذا الشيء الملفف الذي تحمله في يدها تارة وتضعه تحت إبطها تارة أخرى ، رغيف وأدام لغذاءها . مسكينة ! صارت التلميذة التي كانت في خصب من العيش ولين ، والتي كانت تتطلع إلى مستقبل حسن ،

وتطمع أن تكون معلمة أو طبيبة أو محامية ، أو غير ذلك — صارت وهما الآن أن تكسب رزقها بعرق الجبين ! ! أأقول رزقها ؟.. كلا ! بل رزقها ورزق أخواتها وأمها أيضاً على الأرجح ، ولعل لها أخاً يستعين بالقليل اليسير الذى تكسبه على التعلم ، وعسى أن يكون اعتمادها عليها بعد الله فى كسوة العيد ! من كان يظن أن فتاة مصرية فى مثل هذه السن الغضة تسد مسد الرجال وتعمل أسرة أعسرت بموت أبيها ؟ !

وكرت فى الذاكرة — وأنا أفكر فى هذا — إلى أيام الطلب والتحصيل ، وكنت تلميذاً فى المدرسة الخديوية ، وبيتى فى حى السيدة زينب وطريقى إلى المدرسة ومنها على درب الجواميز ، وكان فى الدور الذى يلينا أسرة حسنة الحال — على خلافنا — لها فتاة تتعلم فى المدرسة السنية فكانت تخرج مؤترزة ، ولعل من القراء من يذكر « الحبرة » القديمة اللامعة ، والنقاب الأبيض ، فهذا كان ما تكتسى به وتستتر فوق ثيابها كأن الثياب لم تكن ستراً كافياً ! وكان الخادم يخرج معها ويحمل عنها الكتب والكراسات وغيرها من الأدوات ، وينتظرها على باب المدرسة عصرًا ليعود بها ، فما كان يليق يومئذ أو يجوز فى حال ما ، أن تسير فتاة ناهد وحدها فى الطريق . ثم مات أبوها ، ولم يخلف لآسرته غير الدعوات الصالحات أن « يسترها » فلم تتخلف الفتاة

عن المدرسة ولم تنقطع ، فقد راحت الأم تبيع حليها وتنفق على بيتها وفتاتها ، حتى عطلت ، فشرعت تبيع ما بها غنى عنه من أثاث البيت ، ورأت أن هذا لا يكفي فاتخذت الحياطة لكسب الرزق وسد الخلة ، ولكنها كانت تفعل هذا سرّاً ، فكانت صديقاتها يرسلن إليها الثياب فتفصلها وتخيطنها وتردها ولا يعلم بذلك أحد سوى خاصتها ممن هن موضع سرها ، وخطبت الفتاة فعمجت بزواجها واستراحت من همها ، ومضت هي على سننها تكسب رزقها بالعمل ليلاً على ضوء مصباح البترول ، وتكف عنه وتخفي ما كانت فيه إذا جاء ضيف أو زارها أحد من الأهل والأصهار . أى نعم ، فقد كانت تخفي سرها عن هؤلاء الأهل مخافة أن يأنفوا ويستنكفوا أو يعيبوا أو يشهروا وإن كانوا لا يعينونها بشيء ما . وكانت فتاتها تود أن تواظب على الدرس حتى تتخرج وتصبح معلمة ، ولكن أمها فضلت الزواج ، لما جاء الكفء ، وقالت إن هذا المستقبل هو الطبيعي لكل فتاة فلا داعي للإرجاء ، فكان ما أرادت .

ولكن أم « زكية » — إذا كان لها أم — تقعد في بيتها مرتاحة راضية وتقذف بينتها الصغيرة على الدنيا لتعمل وتكد وتعود إليها آخر كل أسبوع بعشرات من القروش ، لعلها كل مسكة الأسرة من الرزق .

وعسى أن تكون « زكية » مغتبطة مبتهجة ، وأكبر الظن أنها لا يخطر لها أن الطريق الحديد الذى حولتها صروف الأيام إليه غاص بالمعاطب ، وأن الدنيا قاسية لا تترقى بأحد ، فلنسأل الله لها السلامة فإنها صغيرة غريرة .

٢

آه زكية . . ماذا جرى . ؟ إنها زكية ولا شك ، وإن كانت لا تعرف أن هذا اسمها عندى ، وقد ألفت أن أطلقه عليها وأدعوها به حتى لأحسبني خليقاً أن أنفر وأستغرب إذا تبينت أن لها اسماً غيره ، فإن المرء يألف أن يعرف الشيء أو الإنسان أو الحيوان باسم معين ، وينكر أن يسمعه يدعى بغيره ، ويحس أن الأسم الحديد لا يوافقه ، كأن نرى امرأة فى زى رجل أو رجلاً فى زى امرأة . وما أظن أن هذا إلا من فعل العادة ، ولو أن فتى عودته ذوهه أن يدعو الكلب قطعاً لأنكر واستهجن أن أن يرى غيره يقول إنه كلب .

واحتجت إلى نظارتى لأستثبت فقد ساء بصرى قليلاً . نعم هى زكية بقدها الممشوق ووجهها الصابح وديباجتها المشرقة ، ولكنها على هذا زكية جديدة لا عهد لى بها ، فقد خلعت السواد ،

وحسناً فعلت ، فإنه لون يقبض الصدر ، ويأخذ بالخنق ، ويعصر القلب ، وما أدرى كيف يطيقه على بدنه لإنسان . . ولو كان الأمر إلى لنفيته من الأرض وأريحت الناس من ثقله ومن سوء ما يوحى .

وليس ثوبها الجديد بجديد ، فما عَدَّتْ فيما أرى أن عادت إلى القديم الذى طرحته إلى حين ، وأكبر ظنى أن هذا الذى اتخذته الآن من الكتان الملون ، وهو من أصلح ما يلبس فى الحر واليبوسة ، وإن لم يكن كالحرير رقة واسترسالا وتجلية . ولزكية شعر أثيث مسترخ ، وكانت تجمع مقدمه وترفعه وتلويه وتثبتته بالمشابك وتدع ما عداه مسترسلا يعبث به النسيم إذا شاء ، واليوم أراها قد زادت ففرقته عن شمال ، وأحسبها دهنته بشيء فإنه يلمع ، وكانت عاطلا فعلفت فى أذنها قرطاً من حبة لا أدرى من أى شيء هى ، وغرزت فى شعرها حلية على صفة الورد ، ومن يدري لعلها تطيببت أيضاً .

ويدنو منها فتى يكبرها بحوالى سبع سنوات ، إذا صدقت فراستى من هذا البعد ، وهو فى قميص أبيض وسراويل إلى القدمين ، ولا شيء فى رأسه المتلبد الشعر كأنه مدهون بالصابون ، ويبتسم لها فيتהלل يحياها ويشيع فيه البشر ، وتندفع يمانها وتمتد إليه تنشد المصافحة والملاسة ، ولكن يديه فى جيبيه وعينه فى

عينها ، فهو لا يرى راحتها المبسوطة فتشتي الأصابع وتسترخي الكف وتميل وتمضي على مهل إلى الحقيبة التي تحت الإبط الأيسر ، فقد صارت فتاتنا تحمل حقيبة أو مثبتة حمراء بلون حداثها ، وإنها لحائلة اللون سوداؤه في مواضع من أثر الأصابع ، ولكنها شيء جديد على كل حال لم تكن تتخذ فتاتنا . وأين يا ترى ذهب الرغبة الملفوف في صحيفة قديمة؟ لعلها دسسته في الحقيبة فإنها تتسع له مطويا أو مشطورا نصفين ، فقد صارت زكية على ما يبدو لي تستحي أن ترى بغير حقيبة، وأن يرى معها غذاؤها ملفوفاً في جريدة لأنها استيقظت - أيقظها على الأرجح هذا الفتى - وهو أول من أراه يحدّثها على رصيف الترام . ترى من يكون ؟ إنه ليس طالباً ، فقد ذهب الطلبة كبارهم وصغارهم إلى معاهدهم ومدارسهم ، فقد جاوزا الثامنة من ساعات نهارتنا ، وليست هذه بالثياب التي يرتديها طالب أو موظف ذاهب إلى مدرسته أو ديوانه ؛ والأرجح أنه يعمل في متجر أو في مصنع ، ولو رأيت كفيه لكان من المحتمل أن أرى فيهما ما أستعين به على الظن والتخمين . وهو واقف كمصباح التور الذي إلى جانبه ، فلولا أن شفّيته تتحرك أحياناً لصلح أن يكون تمثالاً ، ولكنها هي لا تستقر في مكان ، ولا تزال تتحرك وتلور وتوليده ظهرها حيناً وجانبها حيناً آخر ، كأنما تعرض

عليه قوامها من كل ناحية ، ولا تزال يدها ترتفع إلى شعرها مرة وتلمسه لمساً خفيفاً كأن بها حاجة إلى ذلك ، وتهوى إلى ثوبها فتسويه ، وترتد إلى حاجبيها فتمسحهما ، وهو جامد لا يعبر شيئاً من هذا التفاتاً كأنما كانت تفعله وهي وحدها قبل إقباله .

وطال وقوفها في انتظار الترام الذى لا يجيء ، أو يجيء ولا يقف ، لأنه غاص ولا متسع فيه لقدم ؛ فجعلت عيني تتحول عنهما إلى غيرهما من الخلق ثم تعود إليهما . فرأيت فتيات ونساء أخريات في ثياب متفاوتة النسج والطرز والتفصيل والألوان ؛ فقلت لنفسى إن أكبر الظن أن فتاتنا زكية ما نضت السواد ارتدت هذا الثوب الملون الزاهى على الرغم من قدمه ، إلا من أجل ... ترى ما اسمه ؟ . فلنسمه عبد المنعم ، ولو من باب إطلاق اللفظ على ضده . اكتست هذا الثوب من أجله وخالفت ما كانت تتوخاه في وقفها من سكون الطائر ، لأنه طلع عليها بما حرك نفسها أو هجم عليها على الأصح ، ولا يمكن أن يقول قائل في عصرنا هذا إن الثياب إنما تتخذ لمنفعتها ، فإنها - ولا سيما ثياب النساء - ذات صلة وثيقة بمعانى الجنس . والطبيعة تلهم المرأة الوسيلة إلى اجتذاب الرجل ، لأن ظهور جيل جديد من الناس رهن بهذا . ولو كفت المرأة عن اجتذاب الرجل ، أو عجزت عنه ، لخلت الأرض من نسل حواء وآدم ، وقد يؤثر

بعضهم هذا ويراه أولى ، ولكن للطبيعة مذهباً آخر وحكمة قد تخفى علينا ولكن خفاءها أو غموضها لا يجوز لنا أن ننكرها أو نرفضها ، فمن المفهوم ، والصواب إذن ، أن تتجمل المرأة للرجل ، أو تتبرج له على قول ابن الرومي ، وأحسب أن لو كان العرى أجمل وأوقع في النفس لتجردت المرأة ، ولكنها تدرك بغريزتها الذكية الملهمة أن الستر أفطن . أما مبلغ الستر فراجع فيما أرى إلى شعور المرأة الباطن بنوع إحساس الرجل بها ومبلغ حاجتها إلى تحريك هذا الإحساس واستثارته ، وفطنتها إلى الناحية التي يسهل عليها استثارته منها . ويمكننا أن نقول إنه بغير الشعور الجنسي لا تبقى هناك حاجة إلى الثياب ولا إلى ما يسمى « المودة » ، وأعتقد أن الرجل السليم الذي لم يصبه مسخ أو شذوذ في طبيعته ، خليق أن يستملح الثياب الطبيعية ، ونعني بها تلك التي لا تظهر كل الظهور ولا تستر كل الستر القدر ومحاسنه المختلفة ، أما الشذوذ فيغيري بإثارة ما ثقلت وطأة الشعور به على النفس .

وذكرت وأنا أدير هذا المعنى في نفسي أن أمهاتنا وجداتنا لم يكن يعرفن « المودة » كما يعرفها بنات هذا العصر . ولم تكن الحياطات يكثرن في زمانهن ، وكانت ثيابهن — في الأغلب — تفصل وتخاط في البيوت ، وكن هن يتولين ذلك على الأكثر ، لا لفقر بهن ، فقد كانت الحياة أخف وأرغد على قلة المال

نسيّاً ، بل لأن هذا كان المألوف ، وكانت الثياب أشبه على العموم ، مع اختلاف فى الألوان والتفصيل ، بثياب الراهبات والمرضات — بسيطة فضفاضة — إلا فى الندرة القليلة ، وغايتها أن تحجب لا أن تبدى وتبرز إلا ما لا حيلة فى ستره . ولما كانت « المودة » مظهراً للرغبة فى إظهار أجزاء من الجسم أو إخفائها ومرجعها إلى الشعور الجنسى ، والفطنة إلى ما هو خليك أن يستثيره — لما كان هذا هكذا فهل يجوز لنا أن نقول إن أهمياتنا وجدانتنا لم يكن يرغبن فى استثارة هذا الشعور فى رجالهن ، أو لم تكن بهن حاجة الى ذلك ، أو كن جاهلات لا يعرفن كيف يتوسلن الى رجالهن ، أو كيف يعمقن لهم شعورهم بهن ويوسعن آفاقه ويرحبته . لا أدري . ولعل غيرى أقدر منى على الاهتداء إلى وجه الصواب .

وأقبل الترام غاصّاً كالعادة ، ولكنه وقف هذه المرة ، وأن لزكية أن تركب فألقت إلى عبد المنعم نظرة فيها أسف وأمل وشكر . فأما الأسف فللغراقه ، وأما الأمل فأحسبه فى لقائه مرة أخرى ، وأما الشكر فعلى قدميه ، فأركب معها بل عاد أدراجه ويده ما زالتا فى جيبيه ، كأنما جاء ليقف معها هنية ، فلماذا كان منه إذن هذا المجهود ؟ ألا يعرف كيف يتسم ؟ أم هو أدهى مما يبدو ، ويتكلف الفتور ليغريها به وبالإقبال عليه

وليحرمها فتطلب .

مسكينة . . لو وسعني أن آخذ بيدها لفعلت ، ولكن مثلها في مثل سنها قلما تصنعى إلا لما يهتف به شبابها الجديد ، ويصفه ويصوره ويزينه ويؤمن به قلبها الغرير المطمئن إلى الخير في الدنيا .

مسكينة ، أو من يسرى . . فقد توفق وتسعد فإنها حظوظ وارزاق وقسم ، وقد تكون من أولئك النسوة السعيدات اللواتي يتلقين ويتقبلن كل ما تجيء به الحياة بالرضا والشكر . . لعل وعسى !

٣

الله يلعنك يا شيخ . . أما إنك والله نخيث داهية على صغر سنك وغضاضتك ! تجيء وعلى ذراعك فتاة مليحة منظرية ، ثم لا يرضيك إلا أن تمضي بها إلى حيث زكية واقفة على رصيف الترام ، وتبسط يدك وتحرك شفطيك كأنك تقول : «صباح الخير» ، وفي عينيك — اليوم — وميض البشر والسرور ؟ وزكية صغيرة غريزة ، وكنت أراها إلى الأمس الدابر مطمئنة إليك ، فرحة بك ، ولكنك في هذا الصباح تفاجئها بهذه الفتاة على ذراعك ،

وتفجعها بهذا السرور الذى تشرق به ديباجة وجهك ، فتكاد تشهق المسكينة ، فما تعلمت أن تتكلف الإغضاء ، وتكتم ما ينحرك فى نفسها من الغيرة ويشكها ويخزها من الألم فى قلبها وجبينها ، ويستحيل لونها « إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد » وتختلج شفتاها اختلاجاً بيناً وهى تجاهد أن تتمم بما لا أحسبك سمعته من رد التحية .

ويضاغف ألم زكية أنى أراها اليوم عنيت بتنسيق شعرها على نسق جديد ، وكانت تفرقه عن شمال ، فزادت وفرقه عن يمين أيضاً ، وجمعت قصتها ولتها ، وغرزت فيها هذه الحلية التى هى على صفة الوردة ، وضمت خصله الفينانة التى كانت من قبل مسترسلة ، وربطتها بشريط أرجوانى . وأراها اليوم معنية أيضاً بهندامها ، ترتدى ثوباً من قطعتين واحدة من خز رقيق أبيض كالقميص لا يتجاوز الخصر ، والأخرى تبدأ من حيث تنتهى تلك ، وتشتمل بها إلى الساقين ، وهى من قطن وفيه خطوط بيض وحر . وكانت وهى واقفة تتلفت ويترقق ماء الشباب فى محياها النضير ، وتخشى — على الأرجح — أن يقبل الترام قبل أن تقبل أنت ، فما كانت التفاتاتها تخلو مما يشى بالاضطراب والقلق ، وترجو — حين تراك وتبتسم لك ، وتلمس ثيابها وشعرها — أن يلهمك الله أن تفتح فك وتسرها بثناء على هندامها وزينتها

وذوقها ، وإذا بك تجيء بفتاة على ذراعك . . ولو اكتفيث من تخيب أملها بإهمال الثناء على زينتها لك ، أو إبداء الإعجاب بحسنها ، لتعزت بأن الرجال هكذا أبداً ، عمى أو بلاء أو جهلاء ، لا يبصرون ، ولا يفطنون إلى بواعث المرأة على التزين ، ولا يدرون أن هذا الثناء عليها ملحها وخبزها .

ثم من هذه الفتاة المزاحة الملاعبة الضاحكة؟ . لا أرى زكية راضية عنها أو مستحسنة لها ، فإنها تنظر إليها شزراً وتزلقها ببصرها ، وتقيسها من فرعها إلى قدمها ، ثم تعرض كأنما تأنف أن تراها . والبلاء أن عبد المنعم كثير المرح في هذا الصباح على خلاف عادته ، وهو بادى الحفاوة بصاحبته الجديدة والإقبال عليها والضحك إليها ، فإذا كنت قد دعوت عليه فإن لى العذر ، وما فعلت ذلك إلا بلسان زكية . وعلى أنى لا أظن أن اللعنة تنقصه ، فما يخذعنى هذا القميص الأبيض النظيف ، وإنى لأستطيع أن أرى — من نافذتى — وضر زيت أو شحم على إحدى ساقى السراويل فوق موضع المفصل ، فأكبر الظن أن صاحبنا صانع ميكانيكى يعمل فى إصلاح السيارات . والأرجح أنه خراط أو حداد ، فإن يده معصوبة إلى الرسغ ، وعسى أن يكون حد المخرطة قد جرحها أو وقعت عليها المطرقة .

والصورة التى ترسم فى ذهنى لعبد المنعم هى أنه يتيم — أعنى

أن أمه قد ماتت عنه - ويكبر في وهمي أن أباه تزوج أختها بعدها ، فعبد المنعم وأخته - فلم يأتخيل له أختاً أصغر منه سنّاً - يعيشان مع أبيهما ونحالتهما . وجاءت الحرب فأيسر الرجل قليلاً وألقى نفسه ذا وفر « نسي » لم يعهده من قبل ، فطلق المسكينة واتخذ زوجة أخرى أصيبي وأنعم وألين ، وترك ولديه مع الخالة المطلقة ، واكتفى بأن يبعث إليهم بنصف ريال في اليوم ، فهم في شدة من العيش ، فاضطر عبد المنعم أن يعمل بيديه لكسب رزق آخر - سبعة قروش أو نحوها تضاف إلى العشرة فتخفف ما هم فيه من ضنوك . أما الأخت فبعثوا بها إلى خياطة تتعلم ، وتستطيع بعد ذلك أن تكسب شيئاً يعين الأسرة على العيش . ولعلها لا تزال عند الخياطة لا تتعلم شيئاً ، فإن الخياطات ضنينات على الفتيات بالتعليم ، وعسى أن تكون كل ما تصنعه هذه الأخت الصغيرة هو أن تخرج لقضاء الحاجات : تشتري اللحم والخضر للخياطة والبلح حين يمر بائعه ، وتذهب بالثياب المحيطة إلى الكواء وتعود بها بعد كتبها ، ولا تزال طوال نهارها طالعة نازلة ، داخلة خارجة ، تحدث وتضاحك من تلقى من خدم السكان ، ويمازحها - وقد يغازلها - غلام الكواء أو الجزار أو غيرها من أصحاب الدكاكين التي اعتادت أن تذهب إليها ، وتقف في موعد الانصراف أو القلوم مع زميلاتها من

الفتيات اللواتي يطلبن هذا العلم أو الفن ، فتقص كل واحدة
منهن على الأخريات ما ترى أن تسيحهن من تجاربها ، وكيف
ذهبت إلى السينما مع صاحب لها ، وبماذا أكرمها ، وماذا
أطعمها ، وبماذا كان يوشك أن يهنئهم ؛ ويتبادلن الأخبار ،
أخبار المعارف والبحيران وسكان العمارة وغيرها مما يقع لهن شيء
عنه ، ويغتنن معلمتهن ، ويذمنها أويثنين عليها ، ويلغظن بذكر
السيدات والأوانس اللواتي يفصلن ثيابهن عند معلمتهن ، وهكذا
إلى آخر ذلك إن كان له آخر يعرف .

ولنسمى هذه الأخت التي لا أعرف أن لها وجوداً ، فتحية .
وبعد عام أو عامين من التحصيل في هذه المدرسة تصبح فتحية
أعرف بالحياة مني ومنك ، وأحسن اطلاعاً على بواطنها وخفائها ،
وأجراً من أجل ذلك على المغامرة فيها ، وأشد استهانة بعقبي
الاجتراء ، وأسرع استجابة للإغراء .

وركبت زكية الترام ، واكتفت من توديع صاحبها بهزة رأس
خفيفة لا تكاد تلمح ، فلولا أن عيني عليها لما تبينت أنها هزت
رأسها ، ولست من يدري كيف تزاوّل عملها في يومها هذا . .
وإلى أي حد تخلط وتغلط ، وماذا يبلغ من صبر رئيسها أو
رئيستها عليها وحلمها معها ! . . وقاتل الله الغيرة ، فإنها بلاء
وداء عياء ، وسخافة ما بعدها سخافة — في نظر العقل — أما في

إحساس القلب فإنها ما تعرف - أحر نار الجحيم أبردها - على حد قول الشاعر ، وما يستطيع أحد أن يقهرها إلا بالرياضة الشاقة . وإني لأكون كاذباً إذا زعمت أن الله وقانى شرها ، ولكي أستطيع أن أزعم أنى استطعت بالرياضة وبتغليب الإرادة المعتمدة على العقل أن أكتمها وأحجبها وألطف من سورتها في آن معاً ، وأن أظهر أيضاً خلافها ، فأفادنى هذا راحة ، ويسر لى ما كان لولا ذلك خليقاً أن يكون عسيراً ، وأبقى زمامى يدي . وهذا باب في القول استطردت إليه وفتحتته على نفسي ، والكلام فيه يطول فيحسن أن أرجئه .

٤

صار أمر عبد المنعم أعقد من أن تغنى في حله نظرة من نافذة ، ولو كانت كمرصد حلوان . فما عدت أرى زكية في هذه الأيام الثلاثة الأخيرة ، فماذا صنع الله بها يا ترى ؟ . . أهى « مريضة حباً » ، أم مزكومة ، أم غيرت طريقها لتغنى عينيها من رؤية هذا الفقى الغادر الذى لا يزال يحيى كل يوم بفتاة بارعة الحسن على ذراعه ؟ . أم تركت عملها إلى سواه ؟ ! وحسناً صنعت إذ تخلفت اليوم على الأقل ، فلو أنها رأت ما أرى لطلقت وانشقت

مرارتها من الغيرة والكمد . فإن عبد المنعم اليوم مخلوق جديد لا عهد لى به ، حتى لقد ارتبت فى صدق فراستى ، فن لى بمن يعيننى على التوجس عن أخباره ، فإنه يحيرنى . من أين جاء بهذه البذلة الحديدية الكاملة ؟ . . ذهب القميص الأبيض وما كان من حرير بل من قطن ، وطرح السروال الملوث بالزيت والشحم ، وهذا ثوب جديد من صوف لا يقل ثمن المتر منه فى أيامنا هذه عن ثلاثة جنيهات ، وهو مفصل على قده ، فلا ضيق ولا سعة ، ولولا ذلك لقلت استعاره من قريب له ، وهذا الخذاء الأسود اللامع يبدو لى أيضاً غير قديم ، فإن النعل طويلة لطيفة كهيئة اللسان ، والجلد ليس فيه تجعد أو ثن من أثر المشى ، وهذا القميص المخطط البراق لا أشك فى أنه من الحرير ، والربطة أيضاً ثمينة ، فأنى له هذا كله ؟ ! أوكث كارنيجى وروكفلر معاً ؟ ! أم هو مهرب مخدرات غفل عنه الشرط ، أم أملاوا له ليخدعوه ويوقعوه فى حبالهم ؟ !

وهذه الفتاة الحديدية ما حكايتها أيضاً ؟ . . إنها ليست كالتى كانت معه منذ أيام وأسخطت عليه زكية وتركتها محنقة تتقى — على ما يظهر — أن تلقاه مرة أخرى ، وهى — أى الحديدية — من طبقة أخرى ، وكأنى بها معلمة أو طيبة أو شىء من هذا القبيل ، فإن فيها لتوقراً واعتزازاً بنفسها على الرغم من إقبالها عليه

وبشاشتها له وأنسها به ، وتناولها أصابع يسراه خفية وفركها بأصابعها والضحك إليه بعينها ، وهي تفعل ذلك وتحسب أن لا أحد يراها ، ولا تدري أنى من مرصدى هذا أقرب كل قمر طالع من فلك « الميدان » .

وثيابها أيضاً نفيسة ناعمة ، وكأنها الغلالة الرقيقة التى تلبس تحت الثياب ، وهي قطعتان كذلك : صدار أبيض قصير الكمين ، وفوق موضع القلب منه ، أو أعلى قليلا ، حرفان يرمزان إلى اسمها بخيوط حر ؛ والثانية مجول أزرق هفهاف يخف مع الريح ، والحذاء سيور بيض وزرق ، ولهاهم القدم بارز والظفر أحمر . أما الشعر ففينان مسترسل وقد لفت عليه — دون أن تغطيه — منديلا أدارته كطرف العمامة . وأما الوجه والقدر فلا قبل لى بوصفهما ، فتخيل ما شئت على هواك ، واعلم أنها استغنت بجملها عن كل زينة أخرى ، فلا أحمر على الشفتين ، ولا شيء على الخدين ، وهي فوق ذلك رزان وإن كانت غير قليلة الكلام أو الابتسام ؛ ولا كبر بها ، ولا خفاء بتحببها إلى صاحبنا — أو صاحبها هي على الأصح .

وما أظن بها إلا أنها وقعت عليه أول ما وقعت فى غير مصر ، فإنى أرى على محياها الصابح سمرة العائدة حديثاً من مصيفها بالإسكندرية على الأرجح ، ولا أستكثر ، أو أستغرب أن يكون

عبد المنعم قعد تيسر له أن يقضى أياماً على ساحل بحر الروم ؛
ومن أدراى أنه لم يحصل على « استمارة » سفر — ذهاباً وإياباً —
فى الدرجة الأولى ؟ أبعد أن يكون له قريب فى السكة الحديدية
يحجود بها عليه . . أو صديق يحرم نفسه ويعطيه ؟ ، . . وإنى
لأرى له قوام الشاب المغرى بالرياضة ، فلعله سباح ماهر ، أو
لاعب كرة بارع ، وعسى أن يدلل له هذا ما يعترض طريق
السفر من مصاعب . ويكبر فى وهمى أنه لقيها فى القطار ،
فأعانها على شىء ، كفتح شباك أو إدارة مروحة ، واتصل حبل
الكلام ، ولانت النظرات ، ورقت الأصوات ، وكثرت النكات .
أو لعله أنقذها من الغرق ، فعرفت له جميل صنعه ، أو أعجبها
فى الماء فتظاهرت بالإشفاء على الغرق ليخف لنجبتها ، فإن
للمرأة لحيلة ، ثم ذهبت بعد ذلك تتلقى عليه دروساً فى
السباحة وهى تحسنها كالسمكة ، ولم يخطر لها أن تسأله من
أنت ؟ . . وما عملك ؟ . . واكتفت بأن تقص عليه هى تاريخ
حياتها مذكورة أن لها حياة وتاريخاً . وأحسب أن نفسه نازعته
أن يصارحها كما صارحته ، ثم أحجم مستحيماً أن يقول إنه
صانع ، وإنه يكسب رزقه بعرق جبينه وكد يديه ، فعدل غن
هذا وأخذ فى حديث الرياضة وما أجاد منها وبلغ فيها ، وتركها
فما عدا ذلك تنوهم شيئاً ذا قيمة ، وهل يكون راكب الدرجة

الأولى إلا ذا شأن ؟ ! . . وإذا كان قد آثر أن يمسك عن التحدث عن آله ومقامه وجاهه أفلا يجوز أن يكون ذلك منه إشفافاً عليها حتى لا يروعها ، أو اتقاء لأن يذكر لها ما تدرك منه أنها دونه مالا وجاهاً ؟ ! إن منطق المرأة عجيب ، وهو أعجب ما يكون حين تعشق . وقد عشقت هذا الفتى ما فى ذلك ريب ، فإنى أرى من مرصدى ما يرفع الظن إلى مرتبة اليقين .

وتورط عبد المنعم ، فإذا يصنع ؟ ! إن صاحبته — ولنسمها كريمة — تقبل عليه مشغوفة به ، فى خفر واستحياء ؛ أى نعم هذا واضح ، ولكنه خفر لا يجعلها تكتم تحبها بل تغزلها ، وهو يستظرفها ويتمنى لو اتصلت أسبابه بأسبابها ، ولكنه حائر لا يسعه أن يكشفها بحقيقة أمره بعد أن تركها تخدع ، وما كذب عليها ولكنه غالطها بالكتمان وأطلق لها أن تتخيل ما شاءت مما يقع فى الروع من ظاهره ؛ وليس فى وسعه أيضاً أن يسايرها ويطاوعها ويلين فى العنان لها ، لأنه يعرف أنه دونها فى كل شىء ، فى العلم والمقام وما إلى ذلك . ثم إنها حدثته — فيما يخيل إلى — أنها مخطوبة لقريب أو غريب ، ولكن بينها وبين خطيبها خلافاً ، فإنها هى تبغى البقاء بالقاهرة ، وهو فى أسبوط أو دمياط ، ولا يريد أن يتطامن ويتواضع ويوسط بعض أولاد الخلال لينقل إلى القاهرة ، وقد ثقل هذا الخلاف على كاهل صبره ، فرحل

إلى حيث عمله معلناً أنه لن يعود إلا بعد أن تستقر هي على رأى حاسم ؛ فإما أن تكون معه حيثما يكون عمله وإلا . . . وهكذا صار الاتفاق في القاهرة ميسوراً بغير تحرز ، ولكن عبد المنعم بليد على الرغم من أن حبها له بين ، وتعلقها به أوضح من الشمس . وليس عبد المنعم بالبليد أو الخافى أو الشموس ، ولكنه خائف حائر مضطرب ، أخوف ما يخاف أن يفضحه الله ويكشف ستره ، ولولا أنه شديد الإحساس بنفسه وهو أن أمره ضئيل بالقياس إليها ، لما عبأ بذلك كله شيئاً ولا قدم غير حافل بما يكون ، وأمرها هي إلى الله . قد كان هذا حليفاً أن ينفرها منه ، ولكنه زادها رغبة فيه ، وتشبهاً به ، وكبر في ظنها أنه غريب وأن به حاجة إلى من يأخذ بيده ويهديه ويعلمه فنون الحياة ، وإن كانت ترى منه أحياناً ما يعد من مظاهر « الشقاوة » ، غير أنها كانت تحدث نفسها أن هذا إنما كان عفواً ، وأنه من وحى الفطرة ليس إلا ، ومن أجل هذا راحت تقول له إنها تعدّه صديقاً في مرتبة الأخ الشقيق ، بل تنزله منزلة الشقيق وتجنّب كحبها لأخيها ، حباً عنيفاً لا ترتقى إليه الظنون ، وتسأله : « من أنت ؟ . . ألا تحبني هذا الحب الأخوى ؟ . . » وتتمنى أن تسمع منه كلمة الحب ولو مقرونة بهذا الوصف الثقيل ، فيتمتم ولا يبين ، ويتضرع وجهه ويضطرب لكثرة ما ينازع نفسه من

العوامل التي تعجلها ، فتحيل هذا على حياء الغريب .
وتدعوه إلى بيتها أيضاً ، وتعرفه بأهلها أو تعرفهم به ، وتقول
لهم إنه كان خير معوان لها في الإسكندرية ، وإنه أسدى إليها
من الأيادي ما لا قدرة لها ولهم جميعاً معا على ردّ جميله ، ويرحب
القوم به وهم في سرهم يتعجبون أو ينكرون ، ولكن ما
حيلتهم ؟ لقد شبت فتاتهم عن الطوق جدّاً ، وصارت موظفة
ولها مرتب حسن ، ومستقبل مرجو ، وفي وسعها أن تستقل إذا
شاءت ، ثم إنها تعينهم ببعض مالها ، وتعنى بأخواتها ، أو هي
على الأقل قد حطت عن كواهلهم عبثاً ، ثم إنها بنت عصرها ،
وهم أبناء عصرهم الذي ولّى ، وتخلّفوا عن ركبهم فصاروا بدعاً
في العصر الجديد ، وشذوذاً محتملاً على التسامح والإغضاء ، وقد
ولّى سلطان الآباء على بنينهم وبناتهم ، بل انقلبت الحال وانعكست
الآية في بعض الأحوال فصار السلطان للبنين والبنات ، والأمر
والنهي لهم وما على الآباء إلا السمع والطاعة راضين أو مكريين .
ويرى القوم في احتشام عبد المنعم وحسن أدبه وشدة حياته ما
يطمئنهم ، فيدعون بنتهم وما آثرت لنفسها ، والله الهادي وهو
المسئول أن يقيها العثار . ترى كيف تنتهي هذه القصة التي أرى
بدائها على رصيف الترام تحت نافذتي . . ليس في تصوير نهايتها
عسر ، ولكني أؤثر أن أكبح الخيال عن الاسترسال والتريث أياماً .

ولكنى فى حيرة من أمر الثياب الجديدة التى يرتديها عبد المنعم ،
أفترانى أخطأت حين توهمته صانعا ؟ لأظن ! على كل حال سترى .

٥

برج الخفاء وعرفنا زكية وصاحبها عبد المنعم ومن يكونان ؟ وما
خطبهما فى هذه الأيام ؟ وما أوحى إلى هذا العلم ولا تلقيته « من
النافذة » ، ولكن الفضل لها مع ذلك فيما اهتمت إليه ووقفت
اله ، فلو لا أننى جعلتهما قيد عيني من النافذة لظلا كغيرهما من
خلق الله الذين لا أعيرهم التفاتاً خاصاً . ولا أتبع النظرة إليهم
نظرة .

ويبلو لى وأنا أتدبر هذا أن كل ما يقع لنا فى حياتنا يحىء
اتفاقاً ومصادفة أو قضاء وقدرًا إذا شئت ، وليس معنى هذا
أن الحياة ليس لها قانون أو نظام ، فإن سستها ثابتة لا تتغير ،
ونظامها لا يضطرب ، وإنما معناه أن ما « يتفق » أن يقع موافقاً
لهذه السنن يكون ، وأكثر ما تجيء المصادفة عفواً بغير عمد ،
والشواهد أكثر من أن يأخذها إحصاء فلا داعى للتمثيل ؛
وحسبك أن تفكر فى وجودك أنت ، فهل كان إلا مصادفة
بحثاً ؟ وهل جئت إلى الدنيا إلا عفواً ؟ لقد كان من الممكن أن

لا تكون ، لولا أنه اتفق ما اتفق ، فأفضى ذلك إلى خلقك وكان من الممكن أن لا يكون لك أخوة أو بنون ، فكان هؤلاء وأولئك جميعاً ، لأن أباك قدر له أن يتزوج ، وأن تكون زوجته تلك التي صارت أمك وأم أخوتك ، ولو تزوج غيرها — وماذا كان يمنع ذلك لولا القدر — لرزق سواك أو لما رزق أحداً ، ولما خرجت أنت على الحالين .

ويخطر لي من أجل هذا أن حب المرء لإخوته عادة ليس إلا ، حتى حب الرجل لبنيه يبدو لي غير حب أمهم لهم ، فهذه قد هاتهم وثقلت بهم وولدتهم وأرضعتهم ، فليس يسعها إلا أن تحس وترى أنهم بعضها ، أما الرجل فأمره مختلف ، وشعوره بأبوته لهم معنوى لا مادي كشعور الأم ، وإن كانوا من صلبه ، ولعل إيجاءه لنفسه أنهم من صلبه ، وأنهم بعضه هو الذي يعمق هذا الشعور ويقويه ، حتى يقارب شعور الأم أو يعادله ، ثم تجيء العادة وفعلها معروف . أعرف رجلاً له بنت من زوجة طلقها بعد أن ولدتها له بقليل ، ثم لم يرها بعد ذلك ، وقد كبرت البنت وناهزت العشرين وتزوجت وأبوها لا يراها ولا يسمع من أخبارها شيئاً ، وكان الاستغراب هو كل ما شعر به لما علم أنها ما زالت حية ترزق وأنها تزوجت ، وقد خطر له يوماً أن يعرفها بنفسه ويأخوتها — فإن له زوجة وأبناء — ثم أمسك ،

وقال إن الخيرة فيما اختاره الله . وعاد إلى إغفال أمرها ، وعهدى به أنه ليس ممن يبدون غير ما يخفون ، ولعله يصبو إليها من حين إلى حين ، ولكنها على التحقيق صبوة إلى مجهول لا يحسن أن يتصوره لأنه لم يعتده كما اعتاد بنيه الآخرين الذين شبوا في كنفه .

وأعود إلى زكية وصاحبها بعد هذا الاستطراد ؛ فأما زكية فعملها رفو الخواب في بيت قديم في زقاق ضيق ، وأجرها طفيف لا أدرى كيف يكفيها لطعامها وحدها ، فإنه ستة قروش ليس إلا ، فلست أستغرب ما كان قد خطر لى من أن بعض ثيابها من قديم ما كانت تلبس أمها ، وقد أصلحته على قدها . وأما عبد المنعم فغلام حلاق — أستغفر الله ، بل هو حلاق فنان كما يصف نفسه ، ومن أجل هذا يتدلل ، فيعمل أياماً ويتبطل أياماً — على هواه — وفنه هو قص شعر السيدات وتصفيفه وكيه وما إلى ذلك مما لا معرفة لى به ، وهو فى هذا بارع حاذق لا يبارى ولا يجارى على ما يقول صاحب الدكان . وخير ما فيه أن السيدات يرضين عنه ويأمنن به ويرتحن إليه ولا يقبلن بديلاً منه ؛ فإذا لم يجدنه فى الدكان انصرفن على أن يعدن حين يشاء أن يجيء . ويقول صاحب الدكان إن هؤلاء النسوة أمرهن عجيب ، فإنهن على استعداد لأن يعطلن ويؤخرن أفراح المدينة كلها فى سبيل الفوز

بالجلوس بين يديه حين يطيب له هو أن يعمل . وهذا هو السبب في أن الرجل لا يرى لنفسه معه حيلة ، ولا يقدر على الاستغناء عنه ، لأن في الاستغناء عنه خراب بيته .

وعبد المنعم يحب زكية ، وزكية تحبه ، ولو كان لها ناقة وبعير لتحابا مثلهما ، ولكن غيرتها عليه ، وغيرته عليها تسود عيشهما وتنغص حبهما ، فهو يرى المقص ، ويترك الدكان ويهم على وجهه في الشوارع إذا خطر له أنها ربما تحدث رجلا آخر في الطريق ، أو حتى صاحب المصنع أو المشرف على عمل البنات فيه ؛ ثم يذهب إلى محطة الترام لينتظرها وهي عائدة ، ويرافقها إلى بيتها ، ويتأخر الترام على عادته في هذه الأيام فيقلق ويسخط ويضطرب ، وإن كان يعلم أن لا ذنب لها في هذا ، ويروح يرفع قدماً ويحط قدماً كالحصان ، ويقبل الترام والناس فيه كالسردين ، متلاصقين متلاحمين ، فيغمض عينيه لئلا يراها في هذا الحشر ومن يسرى ؟ قد يكون بعضهم لصقها ، وعسى أن يلمحها تبسم فيتوهم أنها تبسم لرجل ! وتغلبه الغيرة فيندفع إلى سلم الترام ويذاحم النازلين ويدفعهم بيديه لينظر ، كأنما ينثر كوماً من الورق ، وتكون هي قد نزلت من ناحية أخرى وهو لا يدري ، لتعاميه أولاً ثم لما أغراه به ودفعه إليه جنون الغيرة ، وتدنو منه وتربت على كتفه ، وكثيراً ما تحتاج أن تجره من

ذراعه وهي تضحك ، فيتشهد ، ثم يمشيان وهو مطرق معبس .
ويسألها فجأة : « أين كنت ؟ » .

فتضحك وتقول : « ياله من سؤال ! وأين أكون إلا حيث
تعلم ؟ ! وأين كنت أنت ؟ ولماذا تركت الدكان ؟ وما هذا
العرق المتصبب ؟ » .

وينتهي هذا الحوار كما ينتهى دائماً بأن يصارحها بما كان ،
تقول له إنه يظلمها ، وتسأله منكرة : لماذا يثور إذا تصور أن
يجلا في الطريق أو في المصنع كلمها أو كلمته ؟ ماذا تصنع
إذا نهض رجل عن مقعده في الترام لتجلس ؟ ألا تشكره ؟ أم
كون عليها أن تقطب وتزوى وجهها وتظهر التأفف من وجوده ؟
ماذا يسعها غير أن تجيب رئيس العمل أو صاحبه إذا كلمها
و راجعها ؟ أينبغي أن تخلو الدنيا من الرجال ليطمئن ويسعد ؟
ويسرها أن يكون هذا مبلغ غيرته عليها ، فإنها من الحب ،
ولكنها ينبغي أن تظل أحد العناصر التي يتألف منها هذا الحب ،
لتصفو الحياة وتطيب ؛ أما هذه الغيرة فطوفان جارف . ثم أليس
هو حلاقاً للسيدات ؟ ألا يلمس كل يوم بل كل ساعة شعورهن ؟
أليس معروفاً مشهوراً أنهن جميعاً معجبات بحذقه وأستاذيته ؟
أليس بينهن واحدة جميلة تصبیه إليها ؟ ! إنها أولى بالغيرة ، وأحق
بالقلق الدائم ، فإنه عرضة للفتنة في كل ساعة من ساعات

النهار ، ويضاعف دواعي القلق أنهم نساء مترفات غنيات ،
والمال وحده فتنة كافية ، فكيف إذا اجتمع المال والحسن ؟ !
فإذا يمنع أن تخطفه منها واحدة من هؤلاء اللواتي آتاهن الله
ما حرمته هي ؟

ويثقل عليها هذا الخاطر فتبكي ، والدموع غوث للمرأة ،
فينعصر قلب الفتى ويقبل عليها يستعطفها ويستغفرها ، وتسكن العاصفة
ويصفو الجو ويرق ، وينقضى يومان أو ثلاثة تكون فيهما زكية
أسعد بنات حواء ، ويكون فيها عبد المنعم مثال الرقة والدماثة ،
ويبلغ من ذلك أن يرى رجلا يفسح لها لتتزل من الترام وهو
يقول : « تفضلى يا هانم ! » فتشكره زكية ، فلا يمتعض عبد المنعم
ولا يغضب ، بل يتسم للرجل وهو يمد لها يده لتعتمد عليها وهي
نازلة ويقول : « مرسى يا بيه ! » .

غير أنه لا دوام لشيء أو حال في هذه الدنيا .

٦

أى نعم يا سيدى ، كل شيء يتغير في دنيانا هذه ، ولا يثبت
على حال ، لأن التغير هو سنة الحياة ، والإنسان منا يعرفه
الناس باسمه ، ويروونه فيدركون أنه هو فلان الفلانى ، ولكن

فلاناً هذا ليس إلا عدة أناس تعاقبت على حمل هذا الاسم .
عندى إطار فيه أربع صور صغيرة لى ، ما تأملتها قط إلا
تعجبت كيف يمكن أن يعد الأصل الذى أخذت عنه واحداً ؟
صحيح أن الملامح والمعارف باقية ومشتركة ، ولكن تعبير الوجه
مختلف ، وأحسب أنه لو رآها غريب لا يعرفنى لكان أول ما يقع
فى نفسه منها أنها صور لإخوة أشقاء لا لمخلوق واحد . ولست
أعنى أن الأنف فى إحداها أطول منه فى الأخرى ، أو أن الخدين
هنا أو هناك أكثر امتلاء ، فليس بالى إلى هذا ، وإنما أعنى
أن المعانى المرتسمة على الوجوه الأربعة ليست متطابقة ولا متشابهة ،
ولا حتى متقاربة ، والمعانى مصدرها النفس ، فهنا أربع نفوس
انتقلت بها الأحوال فصارت إلى هذا الاختلاف البين فيما ينبعث عنها .
وقد قضت زكية أياماً وهى راضية قريرة العين بما فاء إليه
صاحبها عبد المنعم من الرقة والظرف وحسن المعاشرة وترك الغيرة
الذميمة ، ثم قلقته وأوجست خيفة ، فقد كان شططه فى غيرته
عليها يَمْضُها ويسود عيشها وينذرهما بالشقوة معه فى حياتهما ،
فكانت تجزع وتندب سوء حظها ، وتتساءل عما جنته حتى
يقسم لها أن تحب رجلاً ظنوناً لا ينفك يتخيل ثم يخال ،
ولكن الغيرة كانت مظهر حب ، ففيها لها مرضاة وإن كانت
فيما عدا ذلك كرباً وبلاءً . والآن لا غيرة ولا شبهة ، فإذا

حدث ؟ هل نضب المعين ؟ وفتر الحب ؟ وتحول القلب ؟ هل استولت على هواه إحدى الفتيات الجميلات الغنيات اللواتي يراهن كل يوم في الدكان ؟ ! أليس المعقول إذا رأيت فتاة جميلة تأبى كل الإباء أن يلمس شعرها غيرك ، أن يغرك ذلك ويطيب وقعه في نفسك فتتلقاها ، حين تقبل عليك لا تقصد إلى غيرك ، هاشأ باشأ مسروراً؟ وتحنى بها وتلاطفها وتضحك إليها ، ثم يكون ماذا ؟ . . ما المسافة بين هذا وبين الحب ؟ . إنها قد لا تكون أطول مما يستغرقه التقاء نظرتين في صقال المرأة ! وريعت المسكينة لما دار في نفسها إمكان ذلك ، وأحست بالنار في صدرها والبرد في أطرافها ، وحارت ماذا تصنع لانتقاء هذه النكبة أو كشف الغمة ، ثم خطر لها وهي تنهأ للنوم ذات ليلة أن في وسعها أن تمتحنه ، فإن هذه الظنون التي تعتلج في صدرها لا تطاق ، ولخير منها أن تيأس ، ومن يدري ؟ لعل الامتحان الذي استقر عليه عزمها يحرك النار التي قاربت أن تتمد .

ولقيته في الصباح بوجه لا يبدو عليه أثر مما كابדתه في ليلها الطويل ، وابتسمت إليه ، متكلفة ، وقالت له إنه يحسن به ألاّ ينتظر أوبتها هذا المساء في موعدها ، فقال : « طيب ، كما تحين » ولم يبد عليه أنه عبأ شيئاً ، وإن كان لم يتخلف

قط عن انتظار عودتها ، مرة واحدة في شهور طويلة ، فكادت تهوى إلى الأرض ، غير أنها تشددت وتحملت على نفسها وقالت له على سبيل الإيضاح إن جاراً ظريفاً لها دعاها إلى السينا فقبلت ، وسيذهبان لمشاهدة الشريط في حفلة المساء ، لأنه لا يتسنى لها أن تذهب قبل ذلك ، فهل تراها أخطأت ؟ .. فقال : لا لا لا ، إن الأمر على العكس ، فقد أحسنت كل الإحسان ، وإنه ليسر له أن يراها تنعم بالحياة .

فقال لنفسها وهي تركب الترام : « آه ! كان ما خفت أن يكون ! فليس هذا عهدي به ، وكيف يطيق — إذا كان لا يزال يحبنى — أن يتصور أن أقضى ساعتين وزيادة إلى جانب شاب مثله ، وأن تلمس ركبته ساقى ، أو كفه كفى ، وأن نتسامر وننصاحك حين يتاح لنا ذلك ، وقد نذهل عن الرواية بما نحن فيه ، وأن يقوم هذا الشاب مقامه ، وينوب عنه في إبلاغى بيتى ؟ !

ولم يكن هناك شاب ولا رواية ، وإنما اختلقت هذا لتثير غيرته ، وتوقظ الحب الذى يخيل إليها أنه يغط فى النوم . ولم يسمعها وقد كذبت إلا أن تؤثر المشى على الركوب لتأخر ، ولم تكتف بهذا بل اختارت طريقاً أطول ، وجعلت ، إلى هذا ، تتلصق وتقف أمام الدكاكين تنظر ولا ترى .

وسألها في الصباح عن الرواية كيف كانت ، فأثنت عليها وأطرت رفيقها الموهوم ، وزعمت أنه أكرمها وسرها وتحنى بها وفعل كيت وكيت ، وأبى أن يعود بها إلا في سيارة ، فقال عبد المنعم : « برفاؤ ! هذا شاب ظريف ولا شك ، وإنه لأهل لما تذكرينه به من الخير وزيادة ، وقد انشرح صدرى الآن إذ عرفت أنك كنت مسرورة » . وأحست وهو يقول هذا أنها لا تسمع كلاما ، وإنما تتلقى طعنات خنجر في حبة قلبها ، وكاد الدمع يطفر من عينيها ، فلولا الإباء الحز لا زمت على صدره وراحت تبكي باربع .

واتفق ذات مساء أن قابلت في الترام جاراً لها حقيقياً ، يعرفها وتعرفه ، فحدثت نفسها أن الله أرسله إليها ، وأقبلت عليه وتوددت إليه ، وشجعته بالابتسام والحديث على الطمع في صحبتها ، كما لانحسب إلا المرأة أن تفعل ، وأدى عنها الفتى أجرة الترام فشكرته شكر المستريد ، ودخلا في حديث استدرجته فيه حتى دعاها إلى التنزه معه يوماً في بعض الحقائق ، فاتفقا على يوم الأحد لأنه يوم راحتها وكان عبد المنعم ينتظرها على عادته في المحطة المعهودة ، فعرفته بهذا الصديق الجديد ، وأبلغته نبأ الدعوة في موعدها ، وزادت فسألته : « ما قولك في أن تكون معنا ؟ » فابتسم عبد المنعم وقال إنه يخشى أن ينغص عليهما متعتهما بوجوده ، واعتذر ، ومشى معهما .

خطوات ثم استأذن ، وانصرف خفيفاً مرجاً كأنما هو يرقص من طرب . ولم يبق في نفس زكية شك في أن عبد المنعم قد ملها وسلاها ، واعتاض منها سواها ، وحز في نفسها هذا ، وعدته ظلماً لها ، وغمطاً لحقها ، وغاظها واستثار نغمتها أيضاً ، وكانت لا تنوى أن تنجز وعدها للفتى قالت لتفعل ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! أليس قد مضى عنها وكأنه يتشهد لإعفائه من مسائرنا بضع خطوات إلى منزلها ؟ . . وهل بقي شيء يدل على أنه يعبأ بها أو يكثر مما تفعل أو تترك ؟ إنه لم يعد له عليها حق بعد ذلك ، وأكبر الظن أنه كان يتلهى بها ، ولم يكن يحبها ، وعسى أن يكون قد فتنته عنها إحدى هاتيك النسوة الغزلات المتحبيبات إلى الرجال ، بارك الله له فيها أو فيهن جميعاً ، فما عادت هي تبالي ما يكون من أمره ، وإنها لحرّة الآن بعد أن نفّض يده منها هذا النفّض ، وما هي بالتريكة التي يلقاها الرجال ويصدفون عنها ، وسيتره أنها قادرة مثله على السلوان وواجدة عوضاً عنه كما وجد .

٧

اعتزمت زكية بعد الذي رأيته من عبد المنعم من قلة المبالاة

أن تركب رأسها ، وتلج ، فما بقي لها فيما ترى حيلة ، وقد خمدت نار الغيرة التي كانت تتلظى كنار الحميم ذات الرقود ، وخودها هو الشاهد أن شعلة الحب قد انطفأت وأن قلب صاحبها خلا ، والأرجح أن تكون سواها قد حلت محلها ، وتربعت ، مستقرة مطمئنة ، ولا تعليل غير هذا لفتور عبد المنعم .

ولم يعد يرضيها ، بل يسخطها ويستثير حنقها ، وحدها أن عبد المنعم لم يغير عاداته معها ، فلا هو يكف عن مرافقتها في الصباح إلى الترام ، ولا هو يفوته أن ينتظرها عند إيابها في المساء ، فإذا كان قد سلاها واعتاض منها غيرها فلماذا يفعل ذلك ؟ وماله لا يريحها باليأس ، وأمرها إلى الله ؟ . . ألا بد أن ينكأ لها الجرح كل يوم مرتين ؟ هل كتب عليها أن لا يزال لها منه مذكر لا يغفل ولا يتركها تتغافل وتتشاغل وتنافس وتلهي ؟ . . ولا يسعها كلما وقعت عليها عينه ورأت هدوءه وسكينة نفسه ورضاه عن الدنيا إلا أن تقيس هذا إلى ما كانت تعهد منه ، وإنها لقسوة أن يلح عليها بمجاملة السالى بعد غيرة الحب الثائر !

أم تراه يتعمد ذلك ليحرقها فتنفذ وينتهى أمرها هي أيضاً معه إلى السلوان ، أو حتى إلى البغضاء ؟ هو عذاب على الحالين كائناً ما كان مراده . ولأولى به وأرقق بها أن يدعها

وشأنها ، فإن هذا كتبديل جلود الكفار في جهنم ، وتجديدها كلما اشتوت واحترقت ليظلوا في عذاب أليم دائم لا ينتهى . وصارت تتأخر عن مواعدها عامدة حتى لا تراه كعادته واقفاً في محطة الترام مسنداً ظهره إلى مصباح النور ويداه في جيبيه ، فما بقيت لها قدرة على الاحتمال . وتلكأت مرة أمام دار السينما ونازعتها نفسها أن تدخل وتغيب في جوفها ساعتين ، وإن كانت رواية غير عربية ، واحتمال فهمها لموضوعها وسرورها به بعيد ، واستهوت أن تنفق في ساعتين أجرة يومين ، وتمنت أن يرزقها الله برجل طيب واسع الرزق ، فيقول لها تعالى يا بنتى فقد أجاب الله سؤالك ، وبعثنى إليك لتستمتعي بما تشائين ، واستهجت أن يخطر لها مثل هذا الخاطر ، وأنكرت ، فما بينها وبين نفسها ، أنها يمكن أن تقبل دعوة من غريب إلى السينما أو غيرها ، وطاف برأسها أن « وماله ، ، وما ضير ذلك ؟ ! ! وماذا أخشى ؟ . . . أترأه يأكلنى ؟ » وألفت نفسها ترد وتقول : « عيب يا زكية ، اختشى ! أنت بنت ناس ، وما هكذا يفعل بنات الناس ! وماذا أبقى للخليعات الفاجرات ؟ » . واستحت كأنما كان الذى يزجرها إنسان حقيقى ، وهزت رأسها ، وسمعت نفسها تقول بصوت خافت : « هو صحيح ؟ إنما هو كلام ! » .

وتنهدت وحولت وجهها عن السينا ، فلو رآها أحد لظن أنها كانت تتأمل الصور المنشورة على الجدران على سبيل الإعلان والتشويق ، وخطت خطوات وهي مطرقة وإذا بجارها يدركها وهو يلهث من العدو ويقول لها : « أين كنت ؟ فأدارت إليه وجهها وقالت بنجفوة : « وانت مالك ؟ » وتعجبت لنفسها ، وأحست أنه كان ينبغي أن تفرح به ، فإنه رفيق على كل حال ، وهو جار لها وبينهما معرفة ، فلا غرابة إذا كلمها في الطريق ، ثم إنه هو الذي أرادت أن تكايد به عبد المنعم وتستثير غيرته ، فإلها تمتعض الآن إذ تراه ؟ . وحدثت نفسها أنها تستطيع أن تدعه يرافقها إلى بيتها . وعسى أن يراه معها عبد المنعم فيعرف أنها وجدت منه بديلا ، وأنها ليست بالفتاة التي يزهد فيها الرجال إذا كان هو قد زهد ! ولكنها نحتت هذا الخاطر وطردته طرداً كأنه عمل لا يليق وكأنها لم تفعله من قبل .

وفوجيء الفتى ودهش وجعل يكرر : « أنا مالي ؟ أنا مالي ؟ » قالت : « نعم ، مالك أنت ؟ ألا يمكن أن أمشي في طريق إلا وتشق الأرض وتطلع لي كالعفريت ؟ . . شيء بارد ! » فزادت دهشة الفتى ومد يده وتناول يدها وسألها : « ماذا جرى ؟ ماذا فعلت ؟ »

فانتزعت يدها منه وهى مقطبة مشمزة وقالت : « من فضلك اتركنى بالتى هى أحسن »
فضرب كفاً بكف وقال : « بالتى هى أحسن أو بالتى هى أفبح ، لماذا ؟ .. ماذا جرى ؟ » .

فصاحت به مرة أخرى : « قلت لك ياسيدى اتركنى ! مالك ومالى ؟ أما إن أمرك غريب ! صحيح ثقيل ! »
وهم الفتى بكلام ، ولكنه عوجل بضربة ألقته على الأرض ، ونظرت زكية فإذا عبد المنعم يتهاً للإجهاد عليه ، فجزته من كمه ، وهى متعجبة وفرحة وخائفة واجفة القلب . . . متعجبة لأن عبد المنعم شق الأرض وخرج منها كما زعمت أن الفتى يفعل ، وكان آخر ما يجرى لها فى خاطر أن ترى عبد المنعم فى هذه الناحية ، وفرحة لأنه كان متلها متغير الوجه كعهدها به حين تأكل قلبه الغيرة ؛ وخائفة لأنها خشيت أن يصيب الفتى مكروه فيقع عبد المنعم فى بلية .

ومضت به دون أن يتلفت أحد منهما إلى ذلك الذى وقع على الأرض كالبحر ، ولم يتكلما بشيء حتى بلغا خط الترام ، فحياها وهم بأن ينصرف ، فتعلقت به وقالت له :
« مالك ؟ .. ماذا جرى ؟ »

قال : « لا شيء لم تعد بك حاجة إلى ، فلا داعي لبقائي
معك »

قالت : « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « وما سؤالك هذا ؟ .. أأست قد بعثني ؟ .. »

قالت : « أنا بعثك ؟ »

قال : « أينما الذى باع صاحبه إذن ؟ »

فكادت ترقص فى الشارع ، وكبحت نفسها ، واقتربت عليه
أن يتمشيا إلى البيت ليتسع الوقت للكلام . . .

ولا نطيل ، وما الداعى ؟ كانت خلاصة ما علمته أن
عبد المنعم استشار رجلاً مجرباً فقال الحكيم العارف بالدنيا وأسرار
النفوس إنه ما قتل حب المرأة ولا نفرها من رجلها كشدة غيرته ،
وإنه ما هاج حرقاتها شيء كقلة المبالاة مهما يكن ما تفعل أو
ما تترك . فصدقه عبد المنعم وراض نفسه وتحامل عليها حتى
كتم أنفاس غيرته المتأججة ليبدو لزكية على حال من الفتور
الموصوف المرجو الخير ، فكان ما كان من أمرهما معا ما يعرف
القارئ .

أما كيف شق الأرض وطلع فتفسيره أن تأخرها عن
مواعيدها أزعجه ، وأطار الوصفة النافعة ، فراح يتبعها فى ذهابها
ولايابها وهى لا تراه .

٨

العصى ، معروضة في دكان ، أو على أيدي بائعيها الطوافين بها ، أو تحت آباطهم ، لا تبدو لي أكثر من أعواد من خشب منجور ومدهون مصقول . ولكنها في أيدي متخذينا أو حاملينا ، أو المتوكلين عليها تدب فيها الحياة ، وتكتسب « شخصية » وتنقلب أشبه بالعنوان أو الشارة أو الراية .

وأنا أرى من نافذتي التي أصبحت لي كالمرض ، كثيرين يغدون ويروحون ، ولكني لأجعل بالي إلى هؤلاء السابلة لأنهم يمرون خطفاً ولا يثبتون على النظر ، فلا يتسنى لي أن أتدبرهم ، إذ كان الواحد منهم لا يكاد يبدو حتى يختفي ، أو لا يسلم حتى يودع ، ومن أجل هذا أوتر الواقفين على الرصيف ينتظرون الترام ويسألون الله في سرهم أن يكون فيه موضع قدم ، وأن يعطف الله قلب سائقه عليهم فيقف ريثما يشون ، متزاحمين متدافعين إلى سلمه ، أو يتعلقون بشيء فيه تبلغه اليد وتثبت به .

ويخلو الرصيف أحياناً ، ويقبل الترام متريثاً متمهلاً ، كأنه

« حمل الحمل » ويقف في المحطة ، دقيقة ودقيقتين وليس به إلا سائقه وحاديه أو زامره . وكأنا يقول ها أنا ذا قد وقفت ، وما من راكب أو راغب في ركوب ، فاللهم اشهد! حتى إذا مل الوقوف والتلكؤ ، وانطلقت الزمارة تدعوه إلى استئناف السير ، أقبل رجل يعدو ليدركه ، ولكن السائق يكون قد أعطاه كل ما عنده من سرعة ، فيقف المسكين وإحدى قدميه على الرصيف والأخرى على الأرض . ويمناه على العصا . ويسراه على قلبه ، ورأسه مثني . وصدره كالخضم يعلو ويهبط ، ولا قدرة له على التفكير في سوء حظه . من شدة الإعياء .

ويسعى المسكين إلى حيث يقوم مصباح الإضاءة الذي حجب ضوءه ، ويسند ظهره إليه ، ويتوكأ على العصا بكلمات يديه ، وهو لا يزال ينهج . ويجيء ترام في إثر ترام ، فلا يتوقف كأنه في سباق ، ولو وقف لما كان فيه موضع ينحشر فيه حتى ولا طفل رضيع .

فأتعجب لهذا الحظ الذي يشبه « الرفيق المخالف » . يكون المرء مستعجلاً فيعوقه كل شيء عما يطلب ، ويكون في فسحة من أمره ووقته فإذا كل شيء ميسر ، وما يخطر له أو لا يخطر ، مهياً حاضر . خرجت مرة أتمشى ، على غير هدى

أو قصد ، وليس لى مطلب سوى هذه الرياضة الهينة ، فبلغت محطة ترام أمامها بائع سجائر ، فلتت إليه ، وجاء الترام ووقف ، فاشتريت ما أبغى من السجائر ، وارتددت لأعبر الشارع إلى الرصيف الآخر فإذا الترام لا يزال واقفاً وما فيه راكب واحد ، حتى ولا ذبابة ، فترددت : أأركب أم أنمشى ، ولم يقطع ترددى إلا صوت يقول لى : « ما تركب والّا تمشى ! » فضحكت وركبت وأنا أقول لنفسى : « هذا ترام خاص يقبنى ولكن إلى حيث يشاء هو لا أنا » ولو كنت أبغى الركوب لكان الأرجح أن يكون غاصاً ، وأن لا يقف .

وأعود إلى ذلك الواقف معتمداً على عصاه ، فأقول إنه كهل ولكن العصا رفعته إلى الشيخوخة المتهدمة ، ولقد رأيتَه يعدو ، فهو لا تزال له بقية من قوة ، ولكن العصا أضافت إلى سنه وهو واقف عشرين عاماً .

وأعرف شيخاً يصبغ شعره صبغاً متقناً أراه أحياناً فارغ اليدين فلا تخذعنى الصبغة ولا تزور سنه ، وأراه وفى يده عصا قصيرة كالتى نراها فى أيدي طلبة مدرسة البوليس سوى أنها أغلظ ، فإذا به قد ارتد شاباً . فيما أرى ، وفيما يحس هو أيضاً ،

لأنه يكون وهى معه أنشط وأخف وأشد وطأ على الأرض ،
فأتعجب .

وأرى شاباً مبالغاً فى التأنق وفى يده عصا مفضضة المقبض
فأقول لنفسى هذا فتى مدلل أو محدث نعمة ، ولا اعتماد عليه
ولا خير فيه ، والأغاب أن يكون أمياً أيضاً ، ولعله كان يلبس
جلباباً ومعطفاً ، فاعتاض منهما ثياب الأفندية ، وأساء اختيار
الألوان ، ولو ظل فى جلبابه ومعطفه لكانت العصا أشبه به
وأليق ، ولما عدا حيثئذ أن يكون من « أولاد البلد » الذين
يخرجون فى مثل هذه الملابس حين يريدون أن يحيا الليل بالسهر
وأن يبيتوا فى « خمر وأمر » كما يقول ابن الرومى فى صفة التجار .
والعصا كاللحية تكون أليق فى سن منها فى سن أخرى .
وكذلك ألوانها وزينتها أو عطلها وحجومها . وهى توافق الذوق
العام حيناً وتنافية حيناً آخر . فما لهذا الذوق ثبات ، وإنه لدائم
التغير والتطور . فى الجيل الماضى مثلاً لم يكن مستغرباً أن ترى
الشبان الأقوياء الخفاف يتخذون العصى ، ولا يبدون إلا وهى فى
أيديهم ، أما الآن فقد اختلف الحال ، وصار الذوق العام ينفر
من منظر الشاب وفى يده عصا . ولا عجب ، فإن من يكتفى
من الملابس بقميص مفتوح الجيب ، قصير الكمين ، وسروال

إلى ما فوق الركبة ، لا يمكن أن يكون إلا مستهجن المنظر إذا اتخذ عصا ، لأن معنى العصا لا يوائم هذه الثياب الخفيفة التي تفيد معاني القوة والجلد والنشاط والأسر والمرح .

وقد كانت لي عصا ذات تاريخ . ولم تكن عصاى ولا كنت اشتريتها ، وإنما أعارنيها ، أو نزل لي عنها ، صديق العقاد ، لما هيضت ساقى ، وكان أخى - وهو أقصر منى قامه - يتخذ عصا أطول منه ، فاستعرتها منه لأتوكأ عليها ، ولكنها كانت طويلة تكاد تبلغ كفى ، فبادلت الأستاذ العقاد وهو مديد القامة ، غير أن عصاه كانت قصيرة تصلح لي دونه ، وظلت معى سنوات طويلات ، عرفها إخوانى جميعاً ، لطول عهدي بصحبتها ، وكانت لا تفارقنى حتى عند النوم ، كنت أبقياها إلى جانبي على السرير ، وكنت ربما نسيها في الترام ، أو مقهى ، أو بيت صديق ، فترد إلى كالثوب الذى يقول فيه الشاعر :

طال ترداده إلى الرفو حتى لو بعثناه وحده لتهدى
ثم اتخذت بيتى في صحراء الإمام على الطريق إلى قرية
الساتين القريبة من المعادى ، فاتفق لي في إحدى ليالى رمضان
أن عدت من القاهرة قبيل السحور ، وإذا بمجنون ضخم الجثة

هائل الأنحاء ، كثيف شعر الصدر والذراعين والوجه والرأس ،
يتصدى لى و « أنا » كما يعرف القارئ أو لا يعرف « من خف
واستدق فلا يثقل أرضاً ولا يسد فضاء » . وكان هذا المجنون
هادئاً فى العادة لا يثور ولا يمس أحداً بسوء ، وكان العطارون
يستخدمونه ، بدلا من الحمار ، فى إدارة طاحون البن ، فإذا
وقف ألحقوا إليه بالرغيف فيلتهمه ثم يدور بالطاحون ، وكان شر
ما يصدر عنه مما يدخل فى باب الأذى أن يرى فتاة على رأسها
جرة ماء كبيرة فيتناولها — البجرة لا الفتاة — ويقلها على فمها
على ما فيها ، فلما اعترض طريقى دهشت ثم فزعت ، ولم يمهلى
بل انتزع منى العصا فتركها له ونجوت بنفسى ،
وإذا به يكسرها على ركبته ، كما يكسر بعضهم عود
القصب ، وكانت غليظة متينة فحمدت الله الذى لم يجعلنى فى
يديه بدنها ! ! .

جلست في بكرة الصباح إلى نافذتي أنظر إلى الطريق وهو يفرش
رملا فإنه يوم الحمل ، وكان البرد شديداً ، وبلغ من قسوته أنني
كنت أنفخ في يدي وأفرکہا وأنا خلف الزجاج ، فكيف
بهؤلاء المساكين الذين يحرقون الرمل ويفرشونه وما عليهم من
التياب إلا هلا هيل ! ... ولو استطعت لرقدت ودمست نفسي
في لحاف ، ولكني لا أطيق الفراش بعد أن أفتح عيني على مطلع
نهار جديد . ولست أتخذ المواقد للتدفئة أو المراوح للتبريد لأنني
أكرهها وأخشأها ، فأني ضعيف وهنان الكيان ، فلا أزال من
أجل ذلك أقول في الصيف ويلي من سماءه ، وفي الشتاء ألا بعداً
لمشتائي ! ولا أصنع لقله عقلي من فرط خوفي شيئاً ألطف به
الوقدة أو أدفع به القرة .

وسيقبل الناس — رجالاً ونساء وأطفالاً — بعد ساعة أو نحوها ،
فيزدحم بهم الطريق ، ليشهدوا موكب الحمل ، وإن كان لا
جديد فيه ، وستغص الشرفات والنوافذ بالمطلين والمطلات ،
وسيدق علينا بابنا فنفتحه ويدخل من نعرف ومن لا نعرف ويحتلون
شرفاتنا ونوافذنا لينظروا وينعموا . وقد قضيت في هذا المسكن

اثنى عشر عاماً وزيادة ، ولست أذكر أن رجلاً غريباً طرق بابنا ورجا منا أن نأذن له في الفرجة ، ولكن المرأة تجترئ وتقدم على ما يحجم ويحجن عنه الرجل . ولم أجترئ أنا قط على سؤال واحدة من هؤلاء الطارقات الغريبات ، عن هذه الشجاعة من أين يجئن بها !! وقلت أسأل امرأتى ، فلعلها وهى من جنسهن تدرى . ولكنها ما استطاعت قط أن تجيبني بأكثر من قولها : « وهل أنا أعرف ؟ » فأسألها : « ولكن لماذا أرى الشجاعة تخونك أنت دونهن ؟ » فتستغرب وتسال : « ماذا تعنى ؟ فأقول : « أعنى لماذا لا ترديهن عن بيتك ما دمت لا تعرفيهن ؟ » فتقول : « ياخبر أبيض ! وبأى وجه أفعل ذلك ؟ » فأقول : « بمثل الوجوه التى يتطفلن بها عليك » فتقول : « هذا شيء آخر . إنهن لا يسألننا شيئاً سوى أن يقفن في شرفة أو نافذة فكيف يضيرنا هذا ؟ ! » .

فلا أرى فائدة ترجى من هذا الحوار فأقصر ، وأبقى في غرفة كتي لا أبرحها وإذا كان لابد من الخروج ، أوصدتها ودست مفتاحها في جيبى . فما أكثر ما استعير من كتي ولم يرد ! وماذا تقول لمن تحلف لك مائة يمين ويمين أنها ستعيد الكتاب بعد يومين اثنين لا أكثر ؟ ! والمصيبة أن كتي غير مرتبة وأنى لم أضع لها فهرساً ، ولست أقيد ما يؤخذ منها ، لأنه

لاخير فى هذا ، فإنى أنا أنسى أن الكتاب استعير ، والذى يستعيره يؤثر أن ينسى أنه عارية ترد . ولكنى لا أخجل هذا الخجل حين يكون طالب الاستعارة رجلا ، فلماذا ياترى ؟ !
 الآن الرجل منا لا يطيب له أن يدع امرأة — ولو كانت لا تعنيه — تظن أنه فظ جافى الطباع ؟ ! وأحسب أن الرجل يدور فى نفسه — وهو مدرك لذلك أو غير مدرك سيان — أن كل امرأة صديقة محتملة ، أى أنها قد تكون فى يوم من الأيام صديقة له ، فمن سوء التمهيد لذلك اليوم أن يردها رداً سيئاً . وليس هذا منطق العقل ، ولكنه منطق الطباع ، فإن من قلة العقل أن يكلف الرجل نفسه عناء التمهيد لصداقة كل امرأة فى هذه الدنيا ، ومن قلة العقل أيضاً أن يتوهم أن المراضاة هى التمهيد الذى لا تمهيد غيره ، فقد تكون الخشونة أفعال وأكفل بأن تبلغ الرجل سؤاله .
 على أنى لا أدرى ، فما زالت المرأة فيما أرى لغزاً معقداً لا حل له . وعلى ذكر الكتب والمكتبة أقول إن من أغرب ما وقع لى فى هذا البيت أن لصا تسور فى ليلة صيفية إلى غرفة نوى ، وحمل كل ما على المشجب من ثيابى وثياب امرأتى ، وكان حكيماً عاقلاً فلم يحاول أن يفتح خزانة أو صواناً أو غير ذلك ، لئلا يحدث صوتاً فنستيقظ . ولو عرف ما اتقى ولا بالغ فى حذره ، فما عندنا شئء ندفع به عن أنفسنا — حتى ولا عصا — وقد سألتنى أخى

بعد ذلك عما كنت خليقاً أن أصنع لو كنت غير نائم ، فكان جوابي الذي لا أتردد فيه : « كنت أتناوم ! » .
على أن هذا ليس بيت القصيد ، وإنما بيته أن اللص ترك ما كان في جيوبى من أوراق ومفاتيح عند مخبأ في الفضاء الذى يشرف عليه البيت ، فجاءنا بها حارس المخبأ فأكبرت فى اللص هذا الحرص على نبذ ما لا ينفعه . وحدث له أنه ألقى بالمفاتيح والأوراق على مقربة من البيت ، ولكنى لما تأملت المفاتيح ألفيتها ناقصة ، فقد أخذ اللعين مفتاح باب المكتب الذى على السلم . فهو إذن ينوى أن يشرفنا بزيارة أخرى ! وضحكت . وقد خطر لى أن لعله لص عالم ، أو من هواة الكتب ، ولم يسعنى إلا أن أغير القفل .

وأعود إلى الحمل الذى استطردت عنه فأقول لى سألت نفسى هذا السؤال : « ماذا ترى يفعل هؤلاء الذين يفدون زرافات ووحداً ليقفوا على الرصيفين المتقابلين فى انتظار موكب الحمل إذا علموا أن تاجر أسيشنق بعد ساعة فى ميدان باب الخلق — وكان قديماً هو الميدان الذى يشق فيه من يحكم عليهم بالإعدام ، وقد رأيت اثنين منهم يشنقان ، وكان أحدهما أعشى — لسبب من الأسباب التى توجب الشنق ؟ هل ينتظرون الحمل أو يخفون إلى باب الخلق ؟ ! »
وقلت فى جواب هذا السؤال إن الأرجح عندى أن يهرعوا إلى

••

باب الخلق ، فإن موكب المحمل منظر مألوف ، وإذا مد الله في أجلهم فإنهم يستطيعون أن يروه في موسم الحج المقبل ، ثم إن مشاهدته لا تفيدهم شعوراً أعمق مما يستفاد من الحفلات العامة . أما شتى رجل في ميدان عام فيحرك عواطف أعمق ، فهو أولاً قد اعتدى على الجماعة بقتل واحد منها مثلاً ، وبالخروج على نظامها وقانونها ، ثم إنه بما اجترح يعد — إلى حد ما — ثائراً متمرداً على الجماعة ، فلا يسع الجماعة الواحدة إلا أن تشعر بمقدار من الإعجاب في سريرة نفسها ، وحتى من غير أن تدرك أنها تعجب ، بقوته وبأسه وجرائته . ثم إن شتى واحد من الجماعة مظهر لسلطان القانون وسطوته ، فهو شيء رهيب له روعة . وأخيراً أحسب أن الشتى العلني يثير ويدفع إلى السطح الخشونة الكامنة في الجماعة ، والقسوة الفطرية التي يحجبها الصقل والتهذيب والنظام في العادة ، وقد يعرف القارئ أن الجماعة — كجماعة — أخشن وأعنف وأقل رحمة وأدنى مستوى على العموم من الفرد ، وقد لا تستطيع وأنت وحدك أن تعتدى على ذبابة ، وقد تسقط مغشياً عليك إذا رأيت دجاجة تذبح ، وقد لا يطاولك لسانك على الدوران بكلمة نائية تقولها حتى لأعدى أعدائك ، ولكنك وأنت في جمهور كبير تلتى نفسك قادراً على العدوان باللسان واليد على من يعديك الجمهور بسخطه عليه ، فإن وجود

المراء في جمهور يجعله طوع الروح العام فيصبح التيار السارى هو المسيطر عليه ، لا عقله ولا إرادته . ثم إن اندماجه في خلق كثير يشجعه ويذهب عنه الخوف والخبث ، ويطمئنه . وقد رأيت مرة جماعة من الرجال يعابثون امرأة مجنونة معاينة غليظة ، ويضحكهم صراخها وعويلها وما تهرف به إذ يجذبون ثيابها ويلوون ذراعها ، ويفعلون غير ذلك مما يصنع القط بالفأر ، فزجرتهم فكادوا يتركونها ويعنون بي دونها ، وأسمعوني من الكلام أفحشه وأقبحه ، فضيبت عنهم وأنا أحدث نفسي أنه لو لقيها واحد منهم بمفرده لكان الأقرب إلى الاحتمال أن يرثى لحالها وأن يجود عليها ويعطيها مما أعطاه الله .

ورأيت الأعمى يشق في باب الخلق ، وكنت في طريقى إلى المدرسة ، فإذا الناس يضحكون ويصفقون وينكتون ، ويقذفون المسكين بكل بدىء من القول ، حتى النساء زغردن يومئذ ، وكن في غير هذا الجمع خليقات أن يبكينه ويندبنه . ورأيت في عرس قديم — قبل جيل تقريباً — شابا من أولاد البلد يتجمع عليه لفيف من أمثاله ويعرونه من ثيابه — إلا السراويل — وكانت ليلة شتوية باردة ، ويرغمونه على الرقص وهم حافون به راصدون له ، يحضونه على مواصلة الثنى والتلوى ويصفقون ، وهو يبكى من الغيظ والحجل مما صار إليه من

٥٧

الذلة ، وبقية الناس يضحكون ويقهقهون وهم وقوف لينظروا ،
وأصحاب العرس عاجزون عن حماية الفتى المسكين ، وأنا أتعجب
له ماذا تراه صنع حتى استحق ذلك ؟ ولا أهتدى على كثرة ما
سألت إلى جواب مريح ، فقد كان كل من أسأل يقول : والله
لا أعرف ! وما داعي أن يعرف ؟ أليس حسب هذا المنظر المسلى ؟ !
وسمعت وأنا جالس إلى مكتبي أصوات التصفيق فكان هذا
إيذاناً بمرور الموكب ، فانتظرت دقيقة ثم قمت إلى النافذة أنظر
فإذا الشارع قد خلا لإلّا من الشرط ، والنوافذ ليس فيها وجه واحد
يطل ! انحسرت الموجة وأعقب المد جزر ، وسيمد هذا البحر
الإنساني مرة أخرى ويقبل موجه يرجف حين يؤذن الموكب بعودة
فلنتنظر .

١٠

أرى من نافذتي على هذا الرصيف شعوباً شتى لا يبدولى أنها
تتعارف أو تتواطن ، وإن كانت تتجاور في حى واحد ، ولكل
منها حياته الخاصة التى لا تشبه حياة الآخرين ، لا فى مطعم ،
ولا فى ملابس ، ولا فيما ينشده إنسان فى حياته ويغنيه من دنياه .
وأنا إذ أنظر إليها يخيل إلى أنى أرحل إلى بلاد بعيدة وإن كنت

لم أبرح مقعدى إلى جانب النافذة ، فسبحان ربى الخلاق ! !
أكل هؤلاء المختلفين الذين يابون أن يأتلفوا ذرية آدم واحد وحواء
مفردة ؟ ! . . عجيب هذا ! على أنه ليس أعجب من أن
يكون كل من الرجل والمرأة إنساناً من أصل واحد . وتذكرت
قول « لن يونانج » إنه يتعجب للمرأة كيف تستطيع أن تمشى
على قدمين اثنتين وتقاوم ما يغريها من طبيعة جسمها بالمشى
على أربع !

وتذكرت ما حدثنى به الأستاذ العقاد مرة أنه قرأ لعالم من
العلماء يرجح أن تكون أنثى الإنسان قد انقرضت لأسباب شتى
ذكرها ، فسطا على أنثى حيوان آخر واتخذها له بديلاً من
أنثاه ؟ . .

وتذكرت أنى لقيت مرة إحدى بنات حواء التى لعلها
مظلومة ، فسألتنى : « إلى أين » ؟

قلت : « إلى الأستاذ العقاد ، فهل لك فى زيارته معى ؟ . . »
وكنت أعرف أنها تعرفه من كتبه فقالت : « وأنا هكذا ؟ . »
وصوبت عينها إلى ثيابها وأجالتها فيها ، ورفعت كفها إلى
شعرها تسويه .

قلت : « مالك ؟ »

قالت : « لا زينة ، ولا ثياب جميلة ، وشعرى منفوش ،

وشكلى « ملخبط وحالى اليوم حال »
قلت : « سبحان الله العظيم ! ولماذا تخصينى أنا دون خلق
الله بمزية هذه « اللخبطة » ؟ .

وتعجبت للمرأة ، لماذا تغنى أول ما تغنى بمنظرها وكيف تبدو
فى عين الرجل ولا يعنيا أن يعجب أول ما يعجب بعقلها ، أو
أدبها ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، ولا ترى فى هذا زينة
كافية لها ، أو جمالا هو حسبها . . ولو أن رجلا أثنى على عقل
امرأة أو سعة اطلاعها أو حسن أدبها أو حكمتها ، أو حزمها فى
تدبير أمورها ، وأمسك وأقصر ، لسرها هذا وساءها فى آن
معاً ، فأما أنه يسرها فلأنه ثناء والسلام ، وكل ثناء حبيب إلى
النفس ولو كان بغير الحق .

حدثنى صديق ظريف أن رجلا أقبل على وال من ولاية
الترك القدماء وراح يمدحه ويذكره بكل خير ، ويبدى ويعيد
فى صفة عدله وشجاعته ومروءته وسخائه وعقله وأدبه وعلمه إلى
آخر ذلك ، فقال الوالى — وكان مجرباً عاقلاً — : « اسمع يابنى ،
إن كل ما قلت فى كذب ، ولكنه لذيد ، ووقعه فى النفس حميد ،
فأعد يابنى ، أعد ، وأطل كيف شئت ! »

وأعود إلى ما استطردت عنه فأقول : ولكن المرأة خليفة أن
يسوءها من مثل هذا المدح أنه لا يمتد إلى ثوبها وحسن تفصيله

على قدها الرشيق وجمال لونه أو ألوانه ، وبراعة الافتنان في وشيه ، أو إلى حدائها ودقته ، أو جوربها الرقيق النسج الذي يشف عما تحته ، أو شعرها وتصفيفه ، أو عقدتها أو قرطها ، أو عطرها وطيبها ، أو حتى وشمها إن كانت ممن يوشمن — على قلتهم — !

وإني لأدرك أن هذا راجع إلى وظيفتها في الحياة ، فما هي في الأصل بأثر من أداة للنسل . وإن كان هذا لا يمنع أنها تستطيع أن تجارى الرجال في بعض ما يعالجون . ولكن هذا دليل على ماذا . . أليس هو الدليل على الاختلاف الأصيل الذي يغرى بعض الناس بالقول بأنها مخلوق آخر ؟

وتحت نافذتي اليوم معرض أزياء وأذواق ، فإنه الأحد ، والساعة العاشرة ، والنساء كثيرات على الرصيف في حلل شتى ، ومع بعضهن حقائب صغيرة أو سلال فيها على الأرجح طعام وشراب ، ومع بعضهن أزواجهن أو إخوتهن أو أصدقاءهن ، وفيهن العجوز والصغيرة والنصف ، ولكنهن جميعاً في حفل من الزينة ، وليس بينهن مصرية إلا أن تكون عابرة سبيل ، ومن أين تجيء المصرية وهي لا تخرج إلا لقصاء حاجة أو زيارة أو سينما أو نحو ذلك ، ولا تحسن أن تقضى ساعات الراحة أو يومها أو أيامها إلا في بيتها ، وفي مبادلها ؟ . . ومن المصريات من لسن كذلك ،

ولكن هؤلاء نادرات ، والنادر لا حكم له ولا قياس عليه .
وتساءلت وعيني على هذه الثياب الحسنة ، عن المصرية —
في الأغلب والأعم — كم دقيقة أو ثانية يراها بعلمها في مثل هذا
الهندام الجميل ؟ .. وقلت في جواب ذلك إني أحسب أن
عامل الترام أو البائع في دكان ، أعرف بثياب المرأة من زوجها ،
وأطول رؤية لها في زينتها .

وإنها لمسكينة معذورة ، فما علمها أحدغير ذلك ، ولعلمها ما
كانت لها قدوة غير أم جاهلة .

عرفت فتاة حرة كريمة الأرومة والمنبت ، وإن كنت أنا لا أجعل
بالي إلى هذه الأصول التي يكثر اللغط بها ، ولا أعبأ بها شيئاً ،
ولا أرى الناس إلا سواء ، وإن كانوا يبدون متفاوتين أشد
التفاوت ، وأنا عدو لدود لكل من يرفع طبقة فوق طبقة ،
ويفرق بين الناس فيقول هذا كريم الأصل وهذا لئيمه .

ما علينا . وكانت هذه الفتاة عصرية مثقفة ، وأسلوب
حياتها في بيتها على أحدث طراز كما يقولون .

ودعيت إلى الاحتفال بزواجها — أو على الأصح بكتابة
العقد — فقد أثر القوم كما هي العادة أن يرجئوا ليلة البناء أو
الجلوة حتي يعدوا للفتاة ما تجهز به ويحتاج إليه في وجهتها الجديدة .
وفي تلك الليلة رأيت ما لا يندران يرى مثله ، ذلك أنهم زوجوا

الفتاة هذا الشاب على أن يزوج هو أخاها أخته—بغير مهر في الحالين—وكان هناك طعام وشراب ، فأما الرجال فكانوا في غرفة وحدهم وأما النساء فكن في غرفة أخرى ، ولكن الباب بين الفريقين مفتوح ، وهؤلاء وأولئك يتبادلون الكلام والتحيات والنكات والنظرات ، فلا أدري لماذا كان الفصل ، إلا أن يكون السبب أن الرجال وضعت أمامهم رواقيد الشراب وحرم النساء مثل ذلك . على أنى كنت أشعر أحياناً بغمزة خفيفة ، فالتفت فإذا فتاة صغيرة تبتسم لى ، ثم تشب—وإن كنت قصيراً كما يعرف القارئ أولاً يعرف—وتهمس في أذنى أن فلانة أو علانة ترجو أن أبعث إليها خلسة بكأس ، ولا موجب للإطالة ، فإن زجاجات الشراب ما لبثت أن صارت تنتقل علانية من غرفة إلى غرفة . ولعل الباب لو كان موصداً لما كان له غناء .

ومرت بى العروس بعد ذلك ، فتحدثنا حيناً في أمور شتى ، إلى أن أفضى بنا الكلام إلى الأزواج ، فخطر لى أن هذه فرصة نعتنم وقلت لها : « اسمعى يا عروسنا الجميلة ، إنى أكبر من أهلك سنّاً ، وأحسنى أيضاً أعرف منه بالحياة وأخبر ، فإنه لا يعرف من دنياه إلا البيت والمقهى ، فهل تقبلين نصيحة منى ؟ . . احذرى أن يراك زوجك صباحاً أو ظهراً أو مساءً—باختصار فى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل—فى مياذلك أو فى

ثياب رثة ، أو غير جميلة . فإن بيت الرجل موثله ، وهو يجب أن يجد فيه ما يشتهى ، فلا تحمليه على المقارنة بين ما يراه في بيته من الرثاء ، وما تأخذه عينه في الطريق من مظاهر الجمال والفتنة ، فينكر منك ذلك وينصرف عنك ، ويزهد فيك ، وتتطلع عينيه إلى سواك . واحرصى على تجديد نفسك له بكل وسيلة حتى لا يمل ، فإن الملل شر آفة . والمهم أن يجد عندك ومنك كل ما يتطلب ولا يشعر بحاجة يخطئها أو لا ينالها في بيته ويضطرب أن ينشدها خارجة .

ومضى عامان ، ولم أر وجهها في خلالها ، ثم زارتنى مرة أخرى ، وأخبرتني أن لها في بيت أبيها أياماً ، وأنها « غاضبة » ، فسألته عن السبب فتلعثمت وتلجلجت ، فأعفيتني من الجواب . فقد خمنت السبب في جملته ، وعلى وجه العموم ، وقلت لها : « هل عملت بما نصحت لك به ؟ ... »

قالت : « نعم بالحرف »

قلت : « ولا شكوى له أو تأفف أو تبرم من هذه الناحية ؟ »

قالت : « كلا »

وقلت : « وتعيينه ويحبك ؟ »

قالت : « نعم »

قلت : « اسمعى . ما أرى إذن إلا أنك تفسدين حياتك

بعنادك وقلة عقلك . ألم أقل لك احذرى أن تحرميه شيئاً فيضطر .
أن يطلبه خارج بيته . . لماذا تقذفين به إلى الشارع وتحوجينه
إليه ؟ اسمعى منى وارجمي إليه ، واعذريني إذا كنت أعظك
وأثقل عليك ، فإنى أضن بك على الحية » .

قالت : « ولكن كيف يمكن أن أرجع وهو لا يأتى ؟ »
قلت : « آه الكرامة ! طيب ياستى . سأجيئك به فتهيئ
لللقاء والرجوع معه بلا كلام وكونى له ومعه على ما يجب » .
وأحسبها سعيدة أو راضية فما رأيها بعد ذلك ، وإن كنت
أشتاق إلى المعرفة فإنى أحس أنى مسئول عنها إلى حد ما ؛
ألست قد علمتها ما تعلمت ؟ !

١١

ماذا وراء هذا الظاهر الذى يبدو لنا أو الذى تدركه حواسنا ؟
أو ما هى الحقيقة الكامنة وراء هذه الظواهر التى نحسها أو
نحتليها ؟ فى هذا ذهبت أفكر يوماً ، وأنا جالس إلى نافذتى ،
فقلت لنفسى إن الله جلت قدرته قد خلق لنا عيوناً تشبه عدسة
آلة التصوير ، ولو شاء غير ذلك لكان له تعالى ما أراد ، وكان
من الممكن أن يجعلها كالمجهر الذى ترى به الجراثيم وما إليها مما

لا يتبدى لعيوننا العارية. ولو فعل — جل وعلا — ذلك لاختلف الكون فيما ترى عيوننا حيثئذ ، ولكان غير الذى نراه الآن . ولو شاء لجعل لنا آذاناً أقوى فسمعنا أصواتاً كثيرة من حيث لا نحس الآن إلا السكون التام . وكان يسعه سبحانه أيضاً أن يزودنا بحواس أخرى غير الخمس التى آتانا إياها ، ورزقنا عشرًا مثلاً فنصبح بها عمالقة ومرتفع بفضلها فوق طبقة البشرية كما نعهدها فى أنفسنا .

وذهبت أفكر فى قصور حواسنا ، وقلة جدواها ، وخطأ ما تفيدنا من العلم . فقلت لنفسي إن الغين العارية ترى مثلاً سطحاً مستوياً ، ولا تستطيع على فرط التحديق أن تتبين إلا أنه أملس ناعم مصقول ، ولكننا لو جئنا بميكروسكوب قوى ونظرنا به لوجدنا هذا السطح الذى بدا لنا ناعماً أملس ، مضرساً وعراً غير مستو ذا تلال وأودية ، فأيهما أولى بالتصديق؟. العين المجردة أم المجهر الذى يرى ما لا يسعنا أن نرى . إنه لا يسعنا فى حياتنا العادية إلا أن نأخذ بما ندرکه بهذه الحواس القاصرة ، ولكنه لا يسعنا أيضاً إلا أن نؤمن بصحة ما كشف لنا عنه العلم ، وأن نسلم أن لكل شئ فى هذه الدنيا وجهين : ظاهراً وهو الذى لا يستطيع الحواس أن تعدوه ، وباطناً أو حقيقة ، وهو الذى يهديننا إليه ما نتوسل به من أدوات العلم الحديث . فنحن لا ندرك سوى

جانب يسير محدود ، حين نقف على ما تميزنا الحواس ،
وليس الذى ندرکه بحواسنا . بالقياس إلى الحقيقة التى وراء
المظهر ، إلا كالثياب التى نرتديها ، وتدهوى علينا ، ونرتابنا
وتعجبنا . وما تدلنا الحواس إلا على القليل القريب المتناهي .
والمحجوب عنها أكثر ، فلا منر لنا من توسيع نطاق وعينا .
إذا أردنا أن ندرک شيئاً ما على حقيقته .

وتذكرت وأنا أفكر فى هذا ما كان أستاذنا فى الدبسة يقول لنا
فنستغربه ، ونصدقه لأن إثباته سهل ، وذلك أن إذا كان قطاران
يجريان فى اتجاه واحد ، وبسرعة واحدة ، فإن الراكب فى
أحدهما يخل إلى أن القطار الآخر ثابت لا حركة له ، فلو
اكتفى المرء بما يفيد النظر وحده لغلط وركبه الوهم . فلا سبيل
إلى الحقيقة إذا كان المعول على الحواس وحدها . وشاهد ذلك
حكاية العميان الذين صادفوا فيلاً ، فوقع يد أحدهم على
خرطوم ، ويد ثان على ساقه وهكذا ، وقال عنه كل منهم ما
أفاده إحساسه بالعضو الذى لمسه .

وأنظر إلى بعض الأشياء فأراها ثابتة ولا يبدو أنها تتغير ،
والمسها وأتحسسها وأجسها فلا أخرج بغير ذلك ، ولا يخالجنى شك فى
استقرارها والتزامها حالة لا تعدوها ! ولكن العلم يقول لى إن فى
هذه الأجسام التى أراها ثابتة حركة مستمرة ، وإن عناصرها

المحبوبة لا تنفك تنتقل ، وإن ما يسمى « الكثرونات » لا تفتأ تدور ، فكأن هذه الأجسام المادية ليست في حقيقتها سوى ميادين نشاط دائم سريع ؛ ويقول العلم أيضا إنه ليس في هذا الكون المهول كله حالة سكون مطلق ، وإن ما يبدو أنه سكون إنما هو وهم وخيال . أو كما يقول أنيشتين : إن السكون إنما هو « مظهر » سكون .

فهناك في كل شيء عناصر دوارة أبداً وعناصر دائمة الاختلاج ، حتى الوعي الإنساني نفسه لا يزال في حركة مستمرة من الإحساسات والحواليج والخواطر . وليس لخاطر أو خالجة من الحياة والوجود إلا برهة قصيرة ، والحواليج تتلاحق وتتوالى بكثرة لا يأخذها عد ، وهي تولد وتموت ، كما يولد الناس ويموتون ، سوى أن آجالها هنيهات لا تعرف لها — لضآلتها — قياساً زمنياً .

ثم ماذا ؟ .. ماذا يؤدي بنا إليه العلم الحديث والفلسفة الجديدة ، أو قل التفكير القويم المنهج ؟ . . إن خواطرنا ليس لها وجود ثابت أو بقاء ، وهي تذهب ويخلفها غيرها مما يشبهها ، ولكنه لا يطابقها ، ومن هنا يتولد إحساسنا بالاستمرار . ومن هنا أيضاً يمكن أن نقول إن الكون ليس في حالة ثبات ، بل في حالة صيرورة مستمرة ، لأن الحركة تنطوي على تغير ، فهذا الكون الذي يبدو لنا ثابتاً ركيناً متيناً وطيداً ، هو في الحقيقة

حركة جارية — بهذا يقول العقل وبغيره تنبتنا الحواس .
ويخيل إلى من يتتبع العلم الحديث أنه تناول المادة وفتحها
فألفها خاوية ، فإنها على قوله ليست إلا الكترونات تتحرك ولا
تفتر . ومؤدى هذا أن الأرض التي نمشي عليها رينى فرة ،
ونزرعها ونأكل ثمارها وننعم بخيراتها ، فضاء فارغ ، وأن حواسنا
هى التى توهمنا أنها مادة متماسكة . ذلك أن العلم الحديث يقسم
الذرة التى كانت لا تنقسم ، ويقول إنها « سميكتات » . وتساءل
موجات لماذا ؟ . . . فيجيبك العلم إنها على التحقيق ليست
موجات لمادة ، وإنما هى موجات لنشاط . فليس الكون إذن
مادة ، وإنما هو حالات تحدث وتتعاقب ، ونحن نعيش فى
كون عبارة عن « قوة » دائمة الحركة ، وأعجب ما فيها أنها تبدو
لنا شيئاً أو مادة .

وتسأل عن « النشاط » ، فلا تهتدى إليه فى ذاته ، وإنما
يقولون لك إن مظاهره هى الصوت والحرارة والضوء ... إلخ .
أما النشاط نفسه ، النشاط المحض . فما اهتدى إليه أحد لأنه ليس
إلا فكرة ، وما رآه العلماء والباحثون ، وإنما رأوا مظاهره من الصوت
والحرارة والضوء إلى آخر ذلك ، إذ كانوا قد عجزوا إلى الآن عن
عزله وتجريده ، فهو فرض يفترض لا أكثر ، ولكنه لم يتبد قط
والنتيجة ... ؟ النتيجة أنه ليس ثم وجود مادى ، وإنما نحن نفكر

ونحس فتبدولنا هذه الدنيا . ويرقد العقل والإحساس ، فتزول هذه الدنيا . فالدنيا موجودة ما بقى العقل فى يقظة ، وهى تختفى وتنفقد وجودها إذا نام العقل أو كفت . وليس لشيء فى دنيانا وجود مستقل عن عقلنا ، ولا حقيقة قائمة بذاتها . وليس من اليسور أن نفصل ما يحيط بنا من العالم الخارجى عن ذواتنا ، وإنهما لمنفصلان فيما نحس ونرى ، ولكنهما شيء واحد أو مرتبطان ، يكونان معا ، ويزولان معا ، ولا بتّ للعلاقة بينهما ، ولا يمكن أن يحس المرء بنفسه وحدها غير مقرونة إلى ما حولها .

~ * ~

ولا داعى للمضى فى هذا الضرب من التفكير فإنه خلىق أن يطير العقل ، ويعصف باللب . وهل مؤداه إلا أنك لست بشيء ، وأنت لا أكثر ولا أقل من مظهر نشاط لألكترونات ولا أدرى ماذا أيضاً ... ولكنه على ثقل وطأته على النفس يفيدنا فهماً للحياة قد يكون أقرب إلى الصحة ، أو هو على الأقل أصبح من فهم القدماء لها أو أخرى بأن يصرفنا عن الأخذ بما ذهب إليه العلماء السابقون من الآراء والنظريات التى نقضها المحدثون ، ولا سنبا أنشتين صاحب نظرية النسبية . وقد يحىء غيره من بعده فيهدم ما بناه ، ويحاول أن يستظهر برأى جديد ، فإن عقولنا محدودة ونظراتنا قاصرة والأمركله أمر اجتهاد فى التفسير والتعليل .

١٣

للكتاب الفرنسي المشهور «أندريه مورا» رواية بارعة يسميها «كلبي» يصف فيها حياة رجل تزوج امرأة أحبها فأزته النجوم في الظاهر الأحمر وسودت عيشه ونقصت حياته ، وجعلت من نفسها له عجلا يعبد من دون الله ، ثم طلقته وفارقت ، ومضت الأيام فأحب امرأة أخرى ، وكانت ألين عريكة وأسلس قياداً وأطوع في العنان ، وكان دأبها أن تتحرى مرضاته وتتوخى مسرته ولا تفعل إلا ما تعتقد أنه يرضيه ويريجي ، ولم تكن تعصى له أمراً أو تخالف له مشيئة . ويقول «مورا» إن هذا الرجل وضع بياناً بما يجب وما يكره من هذه المرأة ، فكتب في ناحية ما يجب : أنه معجب بإخلاصها ووفائها له وتعلقها به وحرصها على راحته وهناءته إلى آخر ذلك ، ولكنه يكره منها أنها لا تتشيطان أحيانا ولا تتدلل عليه ولا تعذبه ولا تظهر له الجفوة ولا تثير غيظه ولا تحرك حبه الذي يركده الهدوء والذي يكاد يأسن من فرط السكينة ، وأنه يشتهي أن تثير غضبه مرة أو تبعثه على الحسرة أو الأسف إلى آخر هذا أيضا مما تستطيع المرأة أن تتشيطان به وتركب به الرجل من ضروب العبت الذي تغريها به طبيعتها إذا ساعفتها

الدربة وسعة الحيلة . وأظن أن هذا تصوير صادق لحال الرجل والمرأة . ولعل صاحبنا الذى وصفه « مورا » فى روايته قد ألف التعذيب وطال اعتياده له ، فهو يحن إليه ولا يستطيع أن يروض نفسه على الخلو منه ، فإن الإنسان مع الزمن لا يلبث أن ينقلب حزمة من العادات ، وهذا هو بعض الفرق بين الشباب والشيخوخة فإن الشاب لا يزال مستعداً للتحول والتنقل ، ولكن الكهل يعجز عن ذلك فى الأحيان الكثيرة . وأذكر من أمثلة ذلك أن أعصابى أصبحت منظمة على ساعات الليل والنهار . فأنا حين أفتح عيني لأول مرة فى الصباح الباكر أعلم أن الساعة السادسة ، ولا أحتاج أن أراجع الساعة التى اعتدت أن أدرسها تحت الوسادة . وعلى ذكر ذلك أقول إن النوم لا يواتينى الآن إلا على دقائقها . ولقد تعطلت مرة واحتاجت إلى الإصلاح فأصبت بالأرق . وبلغ من انتظام عادائى ووقوعها فى مواقيتها المضبوطة أن صار فى وسع من شاء أن يضبط ساعته على ، كما كان الناس يضبطون ساعاتهم حينما يرون « كانت » الفيلسوف الألمانى وهو خارج إلى رياضته اليومية ، وكل ما هنالك من الفرق أنى لست فليسوفاً ولا شبهه . وأذكر أنى قرأت منذ عدة سنوات قصة قد يظنها بعض الناس أدخل فى باب المبالغات والتهويلات التى يقصد بها إلى المزاح منها فى باب الحقائق الجافة التى تصلح للمعامل . وتلك -

على قدر ما أتذكر — أن رجلاً كانت له زوجة طويلة اللسان جداً فكانت تصبحه وتمسيه باللعنات والشتائم ، والإهانات والتأنيب المر ، والطعن الوجيع ، والقذح الجارح . وكان في أول الأمر ينفر من ذلك ويثور عليه ، ويهيج بها من فرط الألم ، فيصب عليها مثل ما تصب عليه ، ولكنها كانت أقدر منه ، وأطول باعاً في الشتم ، وأصبر على المواظبة ، وأوفر محصولاً في باب البذاء ، فاستخذى ، وألف ذلك على مر الأيام حتى صار لا يواتيه النوم إلا على صوتها المتدفق ببراعات الهجو ، ومبتكرات الشتم والقذح واللعن . ثم توفاه الله بعد أربع وعشرين سنة من هذه الحياة ، فأقبل عليه آله وإخوانه يهثونه بالنجاة من لسانها الطويل ، ولكن الرجل تضعضع وانهد كيانه وتقوض بنيانه ، وتلفت صحته ، فراح يعرض نفسه على الأطباء فلم يجدوا علاجهم ، ولم تؤثر فيه منوماتهم . ثم أشار عليه لبق ذكى من أصدقائه ، أن يلتمس له زوجة كالأولى ، فعجار الرجل ولم يدر أين يجدها . وراح ينشد طلبته بين الأرامل . إذ كانت الفتيات الأبكار — لعدم خبرتهن — لا يصلحن للاضطلاع بهذه المهمة الجسيمة . وأخيراً جاءه صاحب له ، وأبلغه أن امرأة من « الطراز الأول » توفي زوجها عنها أمس فعليه بها . فشرع يتودد إليها ، ولم تمض بضعة أشهر حتى فاز بها . ولكنه وجد صوتها ضعيفاً لا يبلغه وهو

لى الحديقة . فصار يعمل كرسيه إليها ، ويجلس قبالتها يشرب لعنائها ، ويعب فيما يطول به لسانها عبّ الظمآن . غير أنها لم تكن مع الأسف سوى صدى ضعيف لذلك الصوت الزاخر الذى أخرسه الموت . وكانت المرأة تبذل أقصى ما يسعه طوقها نصف ساعة أو نحو ذلك ، ثم تحس بالفتور فتمسك ، فيفتح الرجل المسكين عينيه ويقول متسائلا أو مستحشا لها : « أنت هنا يا عزيزتى ؟ » .

فتقول . « وأين كنت تحسبنى أيها الغر المغفل ؟ »
فينشرح صدره ويبدو البشر والسرور فى أسارير وجهه ويعتقد أنه سينام فى ليلته نوماً هنيئاً ، ويقول لها : « تكلمى يا عزيزتى فأنى مبصغ إليك »
ولكن برّ سفاهتها تكون قد تشفت ، وبعد لئى ما تستطيع أن تجود عليه بما يملأ ربع ساعة ، فكان الرجل يراها تسكت ، فيهر رأسه ويقول لنفسه : « كلا . لقد كانت زوجتى الأولى — عليها ألف رحمة ورحمة — ذرة يتيمة » .

وكان إذا أراد النوم لا يزال يستحها ويستثيرها لتسح عليه بالشم ، فيقول لها مثلاً حين يبدو عليها الفتور ، ويثنى رأسها النعاس : « نعم يا عزيزتى . . إن بالى إليك . لقد كنت تحدثينى عن فلانة وكيف كنت أحملى فى وجهها على الطعام ولا أحول نظرى عنها إعجاباً بجالها » .

فتهيج به تمطره صيباً من اللعنات الحرار التي تحيي نفسه ،
وتنعش روحه ، ولكن السحابة سرعان ما كانت تقلع ويعود إلى
الجو صفاءه البغيض ، وإلى الليل هدوءه الثقيل ، وإلى قلب ذلك
المسكين حنينه إلى لسان زوجته الأولى ، وبذاءتها المحبوبة ، فيقول :
« هل رأيت فلانة في ثوبها الجديد ؟ تالله ما أشد انسجامه على
قوامها الرشيق .. لقد أخذت قلبي معها حين سلمت علينا البارحة » .
ف فكر عليه بنفس متقطع وصوت محسرج من فرط الإعياء ،
فيرميها بآخر سهم في جعبته ويقول : « أسمع ما قالت فلانة
فيك ؟ .. لشد ما أضحككني والله . . »
فتفتح عينها وتسأله : « أضحككنك أيها الخائن ؟ .. أقول
أضحكتك أيها الكلب ؟ »
فيسنشر ويقول : « وكيف لا أضحك وهي تقول إن لك
ونجها كالسردينه ؟ »

ويغمض عينيه ويرهف أذنيه لسماع المشتهى من السباب
وليتقى أمواج البذاء الصاعدة الهابطة بسوء القول فيه ، ولكن البقية
الباقية من قوتها لا تلبث أن تنفذ ، فيتحسر الرجل على النعيم
الذي زال ، ويظل إلى الصباح أرقاً يصعد آهاته وتأوهاتة على ما
فقد حين ماتت زوجته الأولى ، ويتأفف مما صار إليه بعدها
من الضيقة في هذه الدنيا التي لا يحسن الناس فيها الشتم المريح .

وهذا مثل سقته بقدر ما ساعفتني الذاكرة كشاهد على فعل العادة ، وكيف تثبت وتتأصل مع الزمن ، ولا شك أن فيه إسرافاً وشططاً ، ولكن الاسراف هنا ليس من الخطأ بل المراد به التوكيد . وأعود الآن إلى « مورا » وصاحبه الذي تضجيره الراحة ويسئمه خلو البال من متاعب الحياة الزوجية ، فهو يشتهي أن تتدلل زوجته عليه ، وتتشيطان أحياناً لتعفيه من الركود ، ولتبعث في نفسه الحركة وتثير في قلبه الشعور بالحياة وحبها من طريق الكفاح ، فأقول إني أنا لا أنقم من الحياة الزوجية ما ينقم ، وإن كنت لا يسعني إلا الاعتراف بأني أمل أحيانا طول العهد بالراحة ، ولكني لا أشتهي — كما يشتهي هو — عذاب القلب ووجع الرأس . ومهما يكن من ذلك فإن الواقع أن شكوى صاحبنا ليست فردية ، وكل رجل إذا اطلعت على سريره — يشكو فيما بينه وبين نفسه شيئاً من هذا ، وكل امرأة — إذا اطلعت على سريرتها — يدور في نفسها الإحساس بالملل من تشابه ألوان الحياة وتكررها وعدم تنوعها ، ولو أمكن أن تكون الحياة الزوجية — مع الطول والاستمرار — أكثر تنوعاً ، وأن تخلو من الاطراد الدائم الممل وأن يتورص صفحتها — في بعض الأحيان — إلى الحد الكافي فقط — مقدار من الاضطراب يجعلها أنشط وأحفل بالحركة ويكسيها بعض ما فقدت من الجلدة ، لصارت أمتع

ولكانت حقيقة بأن تكون أهنأ لأن دوام الحال الواحد يفضى بها إلى الركود ، والركود يبلد النفس ويفقدها الشعور بنعيم هذه الحياة ، ولكن المصيبة أنك لاتستطيع أن تضع حداً للاضطراب يقف عنده ولا يتعداه ، فلست تأمن أن تطغى موجته فتغرق فيها وتسوء العاقبة . على أنه يجب أن يكون مفهوماً أن الحياة الزوجية ، ليست هى التى يرجع إليها ما يشعر به الرجل والمرأة من الملل والسآمة ، فإن كل حالة تطرد وتستمر على وتيرة واحدة تكون باعث ملالة وعلة ضيجر ، ولذلك يضجر المرء من عمله ، لا لأن العمل فى ذاته يثقل عليه ، بل لأنه يرى نفسه يذهب كل يوم إلى مكان واحد من طريق واحد ، ويباشر عملاً لا يكاد يتغير فى أوقات لا تختلف وبطريقة لا تتنوع ، فتتفخ مساحره ويشعر بالزهدي ويحس بالحاجة إلى تغيير أسلوب حياته كله ، وهذه هى مزية الأجازات والبعد زمناً عن العمل الذى يزاوله المرء، ولعل خير ما ينشئ الملل عن الحياة الزوجية أن تكون هناك أجازات للزوجين يقضيانها منفردين ، فإن ذلك خليف أن يكون أشوق وأشحن للرجعة وأبعث على الحنين إلى استئناف الحياة المشتركة. على أن عقدة العقد فى الحياة المشتركة بين الرجل والمرأة ليست هذه ، بل مسألة أخرى ، وتلك أن المخلوقين مختلفان فى الحقيقة ، ولكل منها حياته ووظيفته فيها ، واختلاف الوظائف فى الحياة

يؤدي إلى الاختلاف في أساليب التفكير في الحياة ،
 ومع هذا الاختلاف الجسم يجب أن يتفق الرجل والمرأة ويتفاهما
 ويتسايرا ليسعدا ، وينبغي أن تطرد حياتهما المشتركة على الرغم
 من اختلافها في مجرى واحد . فكيف يتيسر ذلك ؟ . . هذه هي
 المسألة كما يقول « هملت » ، وحياة الرجل مدارها غريزة المحافظة
 على الذات لأن عمله في الحياة هو السعي والكفاح والتضال ،
 وهو يستهدف للمصاعب والمهالك والتناف والبوار ولا يسعه إلا أن
 أن يعمل جاهداً لالتقاء ما يعرض له من ذلك كما يعمل جاهداً
 للكسب والفوز ، ومن هنا قويت غريزة المحافظة على النفس ،
 لأن عملها دائم ونشاطها غير منقطع . والمرأة حياة أخرى
 ووظيفة غير هذه — إلى الآن على الأقل — وأكبر ما هو معهود
 فيه إليها هو حفظ النوع والحرص على أن تظل هذه الدنيا عامرة
 بنسل أبينا آدم . وقد تزاو مثل ما يزاو الرجل ، فتسعى وتكافح
 وتنافس وتكسب الرزق وتقوم بأود الأسرة ، ولكن عملها الأكبر
 سيظل هذه المحافظة على النسل ، ومن هنا قويت في المرأة
 غريزة المحافظة على النوع ، وليس معنى هذا أن غريزة المحافظة
 على النوع شيء لا يعرفه الرجل ، وإنما معناه أن الغريزة الفردية
 فيه أقوى من أختها ، كما أن الغريزة النوعية في المرأة أقوى من
 الغريزة الفردية ، وهذا هو سر الاختلاف بين الجنسين ، وهو

اختلاف له مظاهره الجسمية . فليس هو من الأوهام وليس القول به من الآراء التي تحتل النقض وتتسع للمكابرة . وهذا الاختلاف في الطبيعة يفضى حتماً إلى اختلاف مثله في نظر كل منهما إلى الآخر ؛ وأضرب مثلاً فأقول إن حب الرجل للمرأة معناه أنه يريد لها خالصة لنفسه لينعم بها وحده ويستأثر بالمتعة المستفادة من جمالها . أما حب المرأة للرجل فعناه أنها رآته — بغريزتها لا بعقلها فلا دخل للعقل هنا — أحقّ رجل بأن يعينها على أداء وظيفتها ، أى الإتيان بنسل صالح في الدنيا وبقائها عامرة بهذا النسل ، وهى لا تفكر في ذلك كما لا يفكر الرجل في الأمر ، لأن العمل والوحي هنا للغريزة لا للفكر . فالرجل يحب نفسه حين يحب المرأة ، أما المرأة فأنها تسعى للتضحية الكبرى حين تحب الرجل ، فهو لهذا أنانى في حبه وهى لهذا مضحية في حبها ، وهى تحتل المكافاة في سبيل الحب لأن حبها تضحية كبرى ، فأولى بها أن تصبر على التضحيات الصغرى . أما الرجل فهو كما قلت أنانى فلا صبر له على تضحية ولا احتمال منه لعذاب إلا وهو كاره أو عاجز عن الفوز بالراحة ، لأن طبيعة حبه لا تسمح له أن يفهم هذه التضحية ولا يجعله مستعداً لها . وأنا أتكلم عن الأصل لا عما يعرض من الشذوذ . ومن هنا كانت المرأة أوفى وكان الرجل أغدر بالمعنى الشائع لا الحقيقي . فإن الوفاء من

الرجل إفلاس نفسى وخيانة لطبيعته التى فطر عليها أو التى نمت فيه بفضل أسلوب حياته . وهذا هو الأصل ولذلك رأينا الرجل فى تاريخ الإنسانية يتخذ المرأة والمرأتين والثلاث والأربع ، وتكون له الجوارى فضلا عن الزوجات أو من هن فى حكمهن ، ولم نر المرأة تتخذ من الرجال - أعنى الأزواج - اثنين أو ثلاثة أو أربعة إلا أن يكون ذلك - أى أن تصاحب غيره - سرا وخفية ولعلة ولكن الرجل لم يكن يصنع هذا سرا بل جهراً ، وكان يقيمهن فى بيت واحد ، وكانت المرأة ترضى وتدعن وتسعى سعيها لتكون هى الأثيرة المحبوبة لا الوحيدة ، وكان الرجل لا يكف عن الاشتناء والتطلع إلى غير الموجودات والتبرم بالموجودات ، وهذا هو قضاء الطبيعة وحكم الفطرة - أو ما صار كالفطرة - فى الرجل والمرأة . فالوفاء - فيما يتعلق بالرجل - أكذوبة ومنافاة للطبيعة كما قلت غير مرة ، ولكنه - فيما يتعلق بالمرأة - صدق وإخلاص للطبيعة ، ومن هنا أن المرأة لا تزال تتهم الرجل بالغدر والتحول والتقلب وقلة الثبات ، وهذا هو تفسير الغيرة الشديدة من جانب المرأة ، وهى غيرة لا تقاس إليها غيرة الرجل مهما عظمت ، لأن غيرة الرجل على المرأة هى كغيرته على كل ما يملك ، فإذا أمن أن يضع ملكه لم يبال ما دون ذلك مبالاة تذكر ، فغيرته فى الكليات لا فى الجزئيات والتوافه ، ولكن غيرة المرأة مرجعها

إلى إدراكها - بغريزتها الذكية التي تهديها في حياتها - أن الرجل لا يستطيع الصبر على الوفاء . ولا يملك إلا أن يتحول ويتقلب في حبه ، وإلا أن يصرف قلبه من هنا إلى هناك . فكل حركة منه أو لفظة نذير منه عندها بوشك هذا التحول وبفقدان ما كان لها عنده من مقام ومنزلة وإيثار ، وبعودتها واحدة من مئات الآلاف اللواتي لا يبالين أو يحفلن ولا يحسنهن أو يفتنن إلى وجودهن . فهي غيرة على الوجود وكل ما ينطوي عليه من الحقوق والمزايا، ولذلك لا تنفك مشبوبة مضطربة . وقد يتغير كل هذا وتتقارب الطبيعتان تبعاً لتغير الزمن الذي دفع بالمرأة إلى ميدان السعى والعمل وحملها على مشاركة الرجل فيما كان يستأثر به . ولكن حدوث هذا التغير يحتاج إلى أحقاب طويلة علمها عند الله ، وإلى أن يحدث هذا التغير تبقى مشكلة الوفاق قائمة بين الرجل والمرأة ويبقى عسرهما كما هو الآن ، وما أظن الحب حينئذ يكون كما هو الآن بل لا أدري كيف يكون هذا الحب . فإن الاختلاف لا التوافق والتطابق هو الذي يجذب الرجل إلى المرأة ويجذب المرأة إلى الرجل ، فإذا صارا شبيهين وأصبحا ندين وقريعين فكيف ينشأ بينهما الحب الذي ينشأ الآن ؟ !

ومشكلة أخرى جاءت بها العصر الحديث والتطور الحديد في حياة الجنسيتين وعلاقاتهما . فإن القناعة ترجى مع الحجاب ،

ولكنها مع السفور والاختلاط عسيرة . ذلك أن المرأة كانت لا ترى إلا رجلها ، وكان الرجل لا يكاد يرى إلا امرأته ، فإذا رأى غيرها لم يكد يرى إلا الثياب التي هي ملفوفة فيها ومحجوبة تحنها ؛ وفي وسعنا أن نقول على كل حال -- مع شيء من التجوز لا يؤثر في القضية -- إن الرجل كان مقصوراً على امرأته والمرأة كانت مقصورة على رجلها من حيث الاختلاط والمعايشة وما ينطويان عليه ، ولكن الحال اختلف الآن بعد أن برزت المرأة سافرة تغشى المجتمعات وتختلط بالرجال وتكون معهم ومثلهم فالرجل يرى آلامه ما لم يكن يراه والمرأة كذلك . وقد كان الرجل في نظر المرأة مثلها الكامل لأنها لم تكن تعرف سواه ولم تبلُ غيره ، ولكنه الآن لا يمكن أن يكون مثلها الكامل ، لأنها تطلع على حياة غيره كما لم تكن تطلع ، وتعرف كيف يكونون في كل حال ، غير أن من العيب أن تطمع أمة في حياة كريمة أو عزيزة أو ما شئت غير ذلك إا كان نصفها معطلاً محكوماً عليه بالسجن والاستبعاد والذل وعدم الكفاءة للحياة ، مقضياً عليه بالحرمان من الحرية التي هي حق كل موجود ، والاستقلال الذي هو ميراث طبيعي للإنسان . ثم إن الحجاب من ناحية أخرى يحرم المرأة الفرص اللازمة لفهم الرجل ، وهي لا تستطيع أن تفهمه إلا إذا درستة ، ولا سبيل إلى الدرس إلا بالمخالطة والمعايشة . فإذا

امتنع ذلك - وهو يمتنع مع الحجاب - كانت النتيجة أن المرأة تكون مكلفة أن تعاشر مخلوقاً لا تفهمه ولا تعرف عنه إلا أنه يأكل مثلها ويشرب ثم يلبس ويخرج إلى حيث لا تدرى على التحقيق، ليعمل ما لا تعرف وما لا تستطيع أن تفهم على وجه جلى . وهى مع ذلك مطالبة بأن ترضيه وتسايه وتوافقه ، وتكون معه كما ينبغى فى رأيه هو لا رأيها هى . أما كيف تكون معه كما ينبغى فشىء يعلمه هو دونها ، ولا أدرى كيف يتيسر هذا فإنى أراه محالاً ، ولكن الحجاب كان يقضى به مع ذلك .

وأعود إلى المقارنة التى استطردت عنها فأقول إنها على خطرها المحقق لها فائدة ومزية محتملة ، فإنها خليقة أن تدفع الرجل إلى استكمال النقص الذى فيه ، كما أنها خليقة بأن تغرى المرأة باكتساب المزايا التى تراها فى غيرها من النساء ، وهذا عامل رقى ولا شك . ولكن البلاء أن كل إنسان - رجلاً كان أو امرأة - عنده من الغرور مقدار كاف جداً . وما من أحد إلا وهو يعتقد أنه خير من غيره وأكمل وأسمى وأرقى وأجمل وأظرف إلى آخر ذلك ، وكل إنسان قادر على أن يوحى إلى نفسه هذا الاعتقاد ويلح عليها به حتى تؤمن ويتنى عندها الشك فيه ، فإذا أحس نقصاً أو عيباً وآلمه الشعور بذلك لم يحاول أن يعالجه بل راح يحاول أن يعوضه من ناحية أخرى ، فإذا كان ضعيف الجسم ، مسلوب

القوة ، التمس سعة الحيلة وهكذا . وما دام هذا المغرور في الإنسان — وكل إنسان مغرور — فإنه خليق أن يمنع إلى حد كبير ذلك النفع الذي أشرت إليه .

وليست هذه إلا بعض معضلات المجتمع الإنساني وما تنطوى عليه من الحقائق المحيرة . أما كيف تعالج فشيء لا أعرفه ، وأكبر الظن — بل المحقق — أن الجماعة تنظم نفسها بنفسها وفق الأحوال وعلى الأيام ، فلا داعي للقلق ولا موجب للخوف من عواقب هذه المشاكل . وقد يسأل سائل : إذن لماذا تصف أموراً لا داعي للقلق من ناحيتها ولا خوف على المجتمع منها ؟ وردى على هذا السؤال أن الأديب عمله الكلام ولو كان فارغاً . ولو خلت الدنيا من الكلام الذي لا ضرورة له لكفت ألسنة الناس جميعاً — لا الأدباء وحدهم — عن الدوران ثلاثاً وعشرين ساعة وتسعاً وخمسين دقيقة وسبعاً وخمسين ثانية !

١٤

ألقيت الكتاب وذهبت أفكر . وخير ما أعرفه للكتب من الزية والنفع هو هذا : أنها تفتح لي أبواباً جديدة تفضي إلى رحاب واسعة في عالم الفكر والخيال . وكان الكتاب رواية عن عصر ريشليو ، وكان مدارها الدسائس التي لم يكن يفرغ منها .

وقلت لنفسى وأنا أضطجع : « هذا رجل عظيم يعد بحق خالق فرنسا الحديثة . وماذا كان ملكه الضعيف يستطيع أن يصنع بغير معونته ؟ . . لا شيء ! . . ومع ذلك كان ريشليو غرض الدسائس كلها . وكان الأشراف جميعاً يعقّبونه ويكيدون له إلا من اصطفاهم وانتفعوا بالقرب منه . وكان همّ هؤلاء الأشراف أن يخبطوا سعيه . ولو أنه كان أخفق لخسرت فرنسا . ومن يدري .. إن الذى يرى النجار يقطع الأخشاب ويفصلها وينجرها قلما يستطيع أن يتخيل المائدة الجميلة التى تحف بها الأسرة وتجلس إليها مغتبطة مسرورة . ولو أن ألواح الخشب وسعها أن تعلم أن ستكون منها هذه المائدة الجميلة النافعة لما وسعها مع ذلك إلا أن تألم لفعل المنشار والفارة وما إلى ذلك من أدوات النجارة وآلاتها .. ومن يدري أيضاً .. لعل هؤلاء الأشراف كانوا يتوهمون أن ريشليو يسئ إلى فرنسا ولا يحسن ، أو أنهم هم أقدر منه على نفعها ورفع شأنها وإعلاء مقامها . ومن العسير على كل حال أن يدرك الناس الخير فى أثناء العمل له وقبل أن يتم ويتخذ الصورة التى يسهل أن تراها العين- ويدركها الفهم !

وقلت لنفسى أيضاً : « وفى سبيل هذه الغاية ، ألم يرتكب ريشليو أخطاء ومظالم وجرائم ؟ . . ولكنه استهان بذلك كله إذا سلمت له الغاية الكبرى واطمأن إلى تحقيقها . وفى سبيل الخير ،

ما أكثر ما يجنى الناس الشر ! بل ما أكثر ما يكون الشر هو
سبيل الخير ! ونحن الآن نقول إن ريشليو إنما أراد مجد فرنسا ،
فن أدرانا أنه لم يكن ينشد المجد الشخصي . . أفايل هذا
السلطان الذى جمع أعتته فى يديه ؟ . . من الذى يسعه أن يجزم
بأن بواعثه كانت خالية من العوامل الشخصية أو أنها كانت
كلها شخصية ؟ . . وما البأس على كل حال من اختلاط
البواعث العامة بالشخصية ؟ .. أو كيف يمكن أن لا تختلط ؟ ..
وكل زمن وكل بلد فيه مثل ما كان فى زمن ريشليو . . مناورات
ومساع بعضها شريف والبعض وضيع . ومنافسات تحوج إلى
الدس والوقية فى جملة ما تحوج إليه . وما هذه الأحزاب السياسية
التي نراها ؟ . . أليست صورة أخرى للأشراف الذين عنى على
عهدهم الزمن ، والذين كانوا لا ينفكون يقتتلون على السلطان
والمجد ؟ ! والأحزاب تطلب الحكم وترغم أنها إنما تبغيه لتخدم
بلادها ! وإنها لصادقة ولكنها كاذبة أيضا . هى صادقة لأن
غرور الإنسان يجعله يتصور أنه أقدر ممن عداه ، ولأنه لا
داعى لأن يفرض المرء أن هذا الحزب أو ذاك إنما ينشد الحكم
ويسعى لولاية الأمر ليسىء عمداً ، فافعل ذلك إلا عدواً أو
خصم للجاعة كلها أو مضطغن على العالم يريد — كما يقول
المتنبى — أن يروى رحمه غير راحم ، ولكنها كاذبة حين ترغم أن

غايتهما الخير للجماعة وحدها . وأنها لا تبغى لنفسها جاهاً أو سلطاناً ولا يعينها أن تنعم بمزايا الحكم . على أن إرادة الحكم لما يفيد من المزايا لا تنفى الاخلاص فى إرادة الخير للجماعة والصدق فى دعوى التنزه عن المآرب شخصية . ووجه الصدق والإخلاص هنا أن الإنسان يظل يلهمج بخير الجماعة حتى يوحى ذلك إلى نفسه ، فيصبح وهو يعتقد أنه لا يبغي إلا هذا الخير العام . وأنه لو جاءه هو خير عن طريق الحكم لزهده فيه وأعرض عنه . فالذى يحسه من نفسه ويعرفه من غاياته هو هذا الخير للجماعة ، والمستور عن عينه بفعل الإيحاء الملح هو المجد الشخصى والمطامع الذاتية . ومن الناس من لا يمتنع الإيحاء إلى نفسه أن يدرك أن له مآربه وأن يضعها قبالته وأن يتحرى أن تكون وسائله معينة عليها ومؤدية إليها . ولا سبيل إلى الجزم بشئ ، فإن النفوس ليست كتباً تقرأ ، وأصحابها كثيراً ما يجهلونهم فكيف بغيرهم ؟ ! وقد يعين على الحكم على الغير أن يتدبر المرء نفسه ، ويقيس عليها . ولكن نفس الإنسان شئ معقد جداً ووجوهها مختلفة . ولا أدرى كيف تبدو نفوس الناس لهم ؟ ولكن الذى أدريه أن نفسى تبدو لى كل يوم بوجه ، فأنا أراها تارة تنزع إلى الخير وتارة أخرى تجنح إلى الشر . وتصفو أحياناً حتى ليعجز كل ما فى الدنيا والحياة من الأكدار والأحوال أن يعكسها . فكل ما تتلقاه يصفو

مثلها من الأخلط والأكذار . ثم أراها تريد حتى ليسود في عيني نور الضحى ، فكل ما أراه من الناس أو أحسه من ناحيتهم لا تأويل له إلا على أسوأ الوجوه ! وأحسب أن الناس مثلى فما أنا ببدع في الخلق . أريد أن أقول إن الحكم على الغير بالقياس إلى النفس لا يؤمن خطؤه ولا يضمن صوابه . وإن العمل الواحد الذى تجعل من نفسك محكا له يمكن أن يبدو لك اليوم سيئاً ، فإذا تغيرت حالتك النفسية رأيته حسناً لا سوء فيه . فلا سبيل إلى اتخاذ النفس معياراً لأن حالاتها تتعدد وتختلف .

وكل حزب في الدنيا عبارة عن أحزاب شتى ، وكل من فيه ينشد البروز والارتقاء إلى القمة ، والحرب دائرة أبداً بلا فتور . والسلاح لا يلقى في ليل أو نهار . فهذا يؤخر نفسه ويقدم غيره ويتخذ من مظهر إنكار الذات وسيلة للكيد لمنافس له . وما يقدم غيره على نفسه إلا ليكون آلة في يده ، وتراه لا يكف عن الثناء عليه والشهادة له ليجعله أليّن في يده لفرط ما يسره كل ساعة ، ويلزمه ولا يفارقه ولا يدعه يغيب عن عينيه لحظة ليأسره بمظهر الإخلاص ، وليصبح وجوده إلى جانبه عادة له وليمنع أن يتمكن من أذنه غيره . ويرى غيره هذا فيسخطون ويتبرمون ويتجه سعيهم إلى التفرقة ، وقد يتعمدون أن يكتموا النصيحة والرأى السديد ليبدو خطل الرجل وصاحبه . وتسأل عن الخير

العام للجماعة في كل هذا فلا تراه ، وإنما ترى منافسات وأحقاداً ودسائس. وسعائيات لا آخر لها . وتسأل عن إرادة الخير ماذا صنع الله بها ؟ فلا تكاد تتبينها . ولكنها هناك مع ذلك ، وإن كانت تحجبها هذه المنافسات وقد تضعيها في كثير من الأحيان فإن من سوء الحظ — أو من يدرى فقد تكون الحيرة في الواقع — أن الحياة تقوم على التعادى لا التعاون . وإنما يضطر الإنسان إلى التعاون ليكون أقدر على القتال وأقرب إلى الظفر ؛ وليس في الدنيا خير محض ولا شر صرف . وكل منهما ينتج الآخر . على أن الخير والشر ما هما ؟ . . إن الأمر فيها أمر تقدير راجع إلى الأحوال العارضة . وما أكثر ما رأيت الجماعة الخير في شيء ما ثم آمنت بعد قليل أو كثير أنه كان شراً. والعكس يحدث أيضاً ! » ونهضت وأنا أقول لنفسي إن هذه الرواية فارغة وكل ما فيها أنها تدور على شخصية ريشليو ومنه تكتسب قيمتها . وكذلك الأمم تكتسب قيمتها من الفرد البارز لا من الملايين الكثيرة الذين تؤلف منهم هذه الكتلة البشرية الخاصة. ولكنها—أعني الرواية—تمثل مع ذلك كل عصر . فما ظهر عظيم—أو برز رجل — إلا هاجت عليه الأحقاد وراح يحترق حوله وبسببه الانصار والأضداد. ومتى رأيت رجلاً يحبه الناس أو يبغضونه فاعلم أنه كبير ، وليس أتفه ممن لا يتناوله الناس إلا بالاستخفاف ، ولا يحسون له لاجباً عظيماً ولا مقتاً شديداً.

١٤

أراني في هذه الأيام لا أكاد أعرف لي رأياً في شيء ، لا لأني كففت عن التفكير ، فلعل الأمر على خلاف ذلك ، وعسى أن أكون مسرفاً في النظر والتدبر وفي التماس الوجوه المختلفة للأمر الواحد الذي يعرض لي . وإنما ترجع حيرتي إلى أن إطالة النظر تكشف لي كل يوم عن جديد ، وإلى أن تدبر النواحي المختلفة تجعل الحزم عسيراً وتغري بالتردد وتدفع إلى الشك . ومن طال وزنه للأمور وتقصيه لوجوهها وتأمله في البواعث والاحتمالات قلّ بثته — وعمله أيضاً — لأن العمل يراد منه الغاية ، فلا بد من المجازفة والتعرض لعواقب الخطأ من بعض النواحي . وكل رجل عمل يضطر إلى الأخذ بالأرجح فيما يرى وإلا تعذر عليه العمل بل استحال . ورجال الحرب والسياسة والمال والتجارة ومن إليهم لا يسعهم إلا المخاطرة، لأن غايتهم ليست الاهتمام إلى الحقيقة بل بلوغ الغرض . وكثيراً ما أراني أسأل نفسي لفرط ما أرى من تردد وحيرتي : « هل أصبحت غير صالح للعمل ؟ » ولا يسرنى ذلك فأروح أقول إن قدرة النفس على التكيف لا حدها فيما أعرف : وإن العمل الذي

يخرج إلى سرعة البت والجزم بلا تردد يضطر المرء إلى التزول على مقتضياته . وما أكثر ما تكون مواهب الإنسان كامنة فلا يظهرها إلا انتقال الأحوال به . وأنا مع ترددى بين الآراء أراى مع ذلك أتصرف فى مواقف العمل بسرعة وضبط وإحكام . وليس هذا من الثناء على النفس ولكنه من الواقع الذى أعرفه بالتجربة . ومن طول حيرتى بين الآراء أصبحت أثق بخطئى ولا أثق بصوابى . وأقدر الضلال فى كل ما أنتهى إليه ولا أطمئن إلى السداد فيه ، ومن أجل ذلك لا أزال أراجع نفسى فى كل قضية وأنقض اليوم ما أبرمت بالأمس ، ولولا أنى معجل فى حياتى لكان الأرجح أن أحجم عن المجاهرة برأى مخافة أن أكون قد أخطأت الصواب فيه . وأنا أعزى نفسى — لو أن فى هذا عزاء — بقول ويندل هولز — على ما أذكر — إن الحقيقة « كزهر » النرد ، لها أكثر من وجه واحد . فإذا كنت قد رأيت وجهاً واحداً دون سائر الوجوه فإن لى العنر إذ كان هذا كل ما بدا لى... وأين فى الناس من يرى وجوه الحقيقة كلها من كل جانب؟ ولهذا الحيرة عللها المعقولة، فأنا قد ورثت آراء، وأفدت من مخالطة الناس آراء واكتسبت من الاطلاع آراء ، وكنت أسلم بما ورثت واكتسبت وأنا فى سن التحصيل ، وكنت ربما كابرت بالخلاف فيما أخذته من بيتئى . أما ما كنت أفيده من الكتب

فكنت أتلقاه بالإكبار والإقرار لأنى لم أجِد من يهدينى أو يرشدنى . فلا البيت كان لى فيه هذا المعين ولا المدرسة كنت أجِد فيها هذا المعلم الحاذق المرشد . وظل احترامى للكتب على حاله حتى احتجت فى سنة أن أبيعها ، وشقّ علىّ ذلك فى أول الأمر ، وكنت لا أكاد أطيق أن أدخل الغرفة التى كانت مرصوفة فيها . وظللت أياما أحس كلما نظرت إلى الرفوف التى خلت مما كان عليها أنى فقدت أقرب الناس إلىّ وأعزهم علىّ ، وأشعر أنى مشف على البكاء إذا لم أحول عيني عن هذه الرفوف الخالية . ولم يكن ما أتحسر عليه زينتها وما أضعته فيها من مال خسرت به بالبيع ، وإنما كانت الحسرة على فقدان أساسى لى وإخوانى . وبقيت بعد ذلك زمناً لا أمر بمكتبة عامة إلا أشحت بوجهى عنها من فرط الألم ، وإلا أحسست أن يداً عنيفة تلوى أحشائى وتحاول أن تقتلعها . وكان من غرائب ما حدث أنى لبثت أكثر من سنة لا أفتنى شيئاً من الكتب كأنما زهدتني الحسرة على ما ضيعت فى كل جديد غيره . ومن الغريب أن هذا هو نفس الأحساس الذى عانيت به لما توفيت زوجتى ، فقد ظللت سنوات لا أطيق أن أنظر إلى وجه امرأة . ثم فتر الألم وخفت وطأته كما هى العادة ، وكنت فى خلال ذلك قد احتجت أن أنظر بعيني وأفكر بعقلي فألفيتنى أشك فى كثير

مما كنت أسلم به ولا أكابر فيه ولا يخطر لى أن أعترض عليه !
وتغير الأمر فبعد أن كنت آخذ الآراء من الكتب أو الناس
صرت آخذها من الحياة بلا واسطة وأعرضها على عقلى بلا مؤثر ،
فاعتدت الاستقلال فى النظر والحرية فى التفكير ، وخلا تفكيرى
وإحساسى شيئاً فشيئاً من تأثير الكتب وسواها ، وبرزت نفسى
بعد طول التضائل . ثم أخذت أروض نفسى على التماس الجوانب
الأخرى التى تخفى فى العادة ، فصارت وجوه الحقيقة تتعدد
فيما أرى ، وألفت ذلك حتى صار هذا ديدنى مع الناس .
فإذا رأيت من صاحب لى ما يسوءنى حاولت أن أضع نفسى فى
مكانه ، وأن أنظر إلى الأمر بعينه هو ، وأن أتمثل بواعثه وإحساساته
إلى آخر ذلك ، فينتهى الأمر فى الأغلب بأن أعذر ولا ألوم .
ويذهب الألم أو الغضب أو غير ذلك مما أثار صاحبه بما صنع .
بل ترقيت من هذا إلى ما هو أرفع ، فصار نظرى إلى الناس
نظراً إلى مادة تدرس ، لا إلى مخلوقات تعاشر ويصدر عنها ما
يسوء أو يسر . ولا شك أن الفعل الحميد يحسن وقعه فى النفس ،
وأن السوء يؤلم أو يغضب ، وليس يسغى إلا أن أتلقى ما يكون
من الناس بالحمد أو الدم وبالرضا أو السخط ، ولست
بإنسان إذا لم يكن هذا شأنى . ولكنى أعنى أنى لا أعجل بالدم
والسخط ، ولا أندفع مع أول الخاطر بل أراجع نفسى وأجبل

عنى فى الأمر لأراه من ناحية غير الناحية التى طالعته فى البداية ، فيتحول الموضوع من عمل أو قول باعث على الرضا أو الامتعاض إلى مادة للتفكير ، وتذهب عنه الصبغة الشخصية فكأنى أمتحن نظرية ولست أزن صنع إنسان أساء أو أحسن .

وينخل إلى الآن أنى أعيش فى معمل ، فكل ما ألقاه فى الحياة من خير وشر ، وما أجدنى أو أجده سواى فيه من جد وطموح ، أتناوله بالتحليل والبحث لأستخلص منه ما يتيسر لى استخلاصه من الحقائق . ثم أروح أقيسه إلى تجاربى الأخرى وأقارن وأقابل ، ولا أزال أفعل ذلك حتى يهدنى التعب . وقلما أهتدى ، وكثيراً ما أضل ، ولكنى لا أسأم ولا أضجر ، لأن هذا صار متعة النفسى التى لا أعدل بها متع الدنيا بعد أن وجدت نفسى وعثرت عليها تحت طبقات الكتب التى بعثها ، والحمد لله على ما كنت أتوجع وأذم الدنيا من أجله ، فلولا أنى بعث هذه الكتب لما وجدت نفسى ولكان الأرجح أن أظل كالذى يعبد أصناماً .

والشك حيرة ولكنه حرية . وسعة الأفق خير من ضيقه على الرغم من العناء الذى يكابده المرء من إرسال العين وإدارتها فى النواحي الخفية أو البعيدة . وإنه لعذاب ، وإن جدواه لقليلة بالقياس إلى الجهد الذى يبذل فيه ، ولكنه خير وأمتع من التعجر الذى يؤدى إليه التسليم بلا نظر . وحسبك من متعته

أنه يريك كل يوم جديداً . وقد يكون ما تهتدى إليه وتسببه جديداً، قديماً جداً في الحقيقة، ولكن المتعة في الجهد نفسه لا في النتيجة . والشأن في هذا كالشأن في الألعاب الرياضية ، فإن الغاية منها ليست الغلبة والتفوق أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى ، وإنما العبرة فيها بما تفيد من التدريب وما تكسبه بفضل الجهد الذي تنفقه فيها . ولذتها في مزاولتها لا فيما تنتهي به من الفوز ، وإن كان للفوز قيمته ومزيته ، ولكنه ليس كل ما تزاول الألعاب من أجله . ومتى صار كل شيء مادة للدرس والبحث فقد صارت الحياة أوسع وأرحب وصار المرء كأنه يخلق فوقها وإن كان يخوضها ويعانيها . وهذا ما أروض عليه نفسي الآن : أن أكابد الحياة والناس ، وأن يسعني مع ذلك أن أقف منها موقف الناظر المتفرج . فكأني اثنان لا واحد ، أحدهما يعيش ويجرب ويسعد ويشقى ويسر ويحزن ويحد ويهزل ويفعل ما يفعل الناس غيره، وثانيهما يتلقى هذه التجارب وينشرها أمامه ويعرضها على عقله ويقارنها ويقابلها ويفحصها ويضم التشابه منها بعضه إلى بعض ، ويجمع ما يمكن أن يأتلف ، ويعمل خياله فيما يراه ناقصاً ليملاً الفراغ ويسد الثغرة ، ويصنع على العموم ما يصنع الكيماوي في معمله الذي يجري فيه تجاربه ولا يتأثر بالواقع ولا يعنيه ما عانى منه . وهذا الازدواج عسير ولا شك ، ولست أطمع أن أبلغ منه الغاية

٩٥

وأوفى على الأمد ، ولكنى أطمع أن أوفق فى بابيه إلى الكفاية مع
المواظبة والصبر ، ويطمعنى فى النجاح أن كل إنسان له أكثر
من شخصية واحدة وإن كان لا يدرك ذلك .

ويثقل على نفسى خاطر واحد يكاد يصعدنى عن المواظبة ،
هو ما جدوى ذلك كله ؟ . . ما آخر هذا العناء الذى أراه
باطلا ؟ . . آخر ذلك كله معروف . وهل ثم من آخر سوى
الفناء ؟ ! ولكنى أعود فأقول لنفسى إن هذا الآخر لا آخر سواء
بذل المرء الجهد أم قعد عنه وضم به ، فلا فائدة من التقصير
ولأضير من السعى . والحياة أن تحيا لا أن تعجمد وتركد وتأسن .
أما الجدوى فلماذا أعذب نفسى بالسؤال عنها وما جدوى أى
شئ فى الحياة ؟ . . إن كل ما أعرفه أنى موجود وأنى وهبت
قدرة على الإحساس والتفكير . . فكيف أعطل هذه المواهب
وأبطل عملها ؟ . . وكيف يمكن أن أنعم بالوجود وأتمتع بالشعور
به وأنا أعطل ما أعطيت ؟ ! ويعرف الجدوى من أعطائى ،
فلندع ذلك له فهو أعرف به .

١٥

« ألا تعرفنى ما هذا الحديد ؟ »

ولم يكن كلامنا في الأدب أو الفنون ، وإنما كانت المساكن والأحياء هي مدار الحديث ، وكان الرجل يناهز الستين ، ولكنه في نشاط ابن العشرين ، وأنا آنس به وأسكن إليه ، ويسرنى أن أجلس بين يديه وأصغى — أو لعل الأصح أن أقول أنظر — إلى عباب حديثة المتحدر ، فقد كان يذكرني بالبحر ، ويروغني مثله بمثل فيضه الزاخر .

فقلت له : « ياسيدى ، العارف لا يعرف . . ولكنى أستأذك في أن أقول لك إنكما جيلان — أنت وبنوك — ومن حقا أن تتبرم بهم وتسخط على نزعتهم في الحياة وتستسخر مطالبهم وغاياتهم منها . . أنت حر في ذلك ، ولكن من حقهم أيضاً أن يضجروا منك لأنهم ينزعون غير نزعتك ، وأن يطلبوا من الحياة غير ما تطلب لأن وجوهها اختلفت . وأظن أن هذا عدل ! » فصاح بي : « عدل ؟ ! كيف تقول ؟ ! أعدل أن يخرجوني من بيتي ويحملوني إلى حي أنا فيه غريب لا أشعر إلا بالوحشة ، ويقصوني عن أحبائي وأصحابي وعشراء الصبا وأخذان العمر كله ؟ ما عيب بيتنا بالله ؟ ! إني لست متعتاً . . أنت تعرف بيتنا فهل فيه عيب ؟ ! »

قلت : « كلا . . وأشهد أن لا عيب فيه . . واسع وصحى وأسباب الراحة فيه موفورة . . نعم لا عيب فيه ، ولكنى أعترف بأنى

لو كنت ابنك لما فعلت إلا ما فعل بنوك ، أى لخرجت منه ! » .
 فقال : « أنت كنت تفعل ذلك ؟ حاشا لله . . إنك عاقل . »
 قلت : « المسألة ليست مسألة عقل . . وإنما هى مسألة
 حياة تغيرت وجوهها وزمن اختلفت المطالب فيه . »
 قال : « إني أجادلهم كل يوم . . الكلام فى هذا لا ينتهى بيننا . . »
 قلت : « وهذا أحسن . . وجدتم على الأقل موضوعاً للكلام
 لاتحشون أن ينضب معينه . »

قال : « اسمع . إني رجل كبير ، وقد أدبت واجبي ، وريت
 أبنائي ، وهم الآن رجال يعتمدون على أنفسهم ولا يحتاجون
 إلى . . فرغت من هذا الأمر . . وأحب أن أقضى ما بقى من
 عمرى فى بيتى . . بيتى أنا . . البيت الذى ورثته عن أبى وقضيت
 فيه خير عمرى . . بل عمرى كله . . ونحولى جيرانى . . أعرفهم
 ويعرفوننى وأستطيع أن أجدهم عند الحاجة . . لقد رفسنى حمار
 فى الطريق فأغمى على فلما أفقت ألفتنى فى بيتى على سريرى .
 هل تعرف من حملنى ؟ جيرانى . . عرفنى أهل الحى فحملونى
 إلى بيتى . . لو وقع لى هذا فى الحى الجديد الذى نقيم فيه الآن
 لجاء الاسعاف وحملنى إلى المستشفى . . »

قلت : « معقول . . أنت تفضل أن يحملك جيرانك وأهل
 حيك إلى بيتك فى مثل هذه الحالة ، ولكن بنيك يفضلون فى

ويعملون هذا موضوعاً لفكاهاتهم . . لا يعجبهم إلا جروبي
وشارع عماد الدين والسينما . . »

قلت : « أنت محق وهم غير مخطئين . . لقد فرغت من حياتك
أو من واجبك فيها ، فأنت تريد أن تفرغ لربك ، ولكنهم هم
في بداية الأمر وأول مراحل الحياة ، ولكل حياة بداية ونهاية ،
ومن العنت أن تفرض عليهم في البداية الحالات النفسية التي لا
تكون إلا في النهاية . وأنت لا تشعر بالحاجة إلى السينما مثلاً ،
لأنك لم تعتدها ، إذ لم يكن لها في زمنك وجود . وقد عشت
بغيرها أثير عمرك ، ففي وسعك بسهولة أن تعيش بقية العمر
من غير أن يخطر لك أن السينما لازمة أو أنها ملهاة مستحبة ،
ولكنهم هم نشأوا في ظلها فصارت من وجوه حياتهم المألوفة ،
وأحسبهم حين تعلقو بهم السن ويفرغون من أمور الدنيا سيظلون
يذهبون إلى السينما كما تذهب أنت الآن إلى المساجد للعبادة ،
ولن يكونوا حينئذ أقل زهداً في الدنيا أو انصرافاً عن باطلها أو
ابتغاء لرضى الله . ومن يدري . . . فقد تكون هناك يومئذ أشياء
جديدة غير السينما يرتادها أبناءهم . فينكر أبناءك على أحفادك
هذا الشغف بالحديد الذي جاء به الزمن . كما تنكر أنت اليوم
على بنيك ذلكهم بالسينما . . . لكل زمن ياسيدى حكمة ولكل
جيل روحه . . . ويحسن بالمرء أن يوطن نفسه على ذلك »

قال : « نعم ، نعم . . . إني لست جامداً ولا متعتاً بل
أنا أدرك ذلك كله »

قلت : « إن الإدراك وحده لا يكفي ، والمعول في مثل هذه
الأمور على العادة لا على الإدراك »

قلت : « صحيح . . . ولكنني مظلوم . . . تصور أني لا أشعر
برمضان في هذا الحى . . . لا نسمع المدفع ولا يندق الباب
علينا أحد ليوقظنا للسحور . . . ولا نسمع الطلبة القديمة . . .
ولا المؤذن . . . لا . . . لا شيء من ذلك . وقد احتجنا إلى المنبه
لنستيقظ على صوته حتى لا يفوتنا السحور . . . تصور
هذا . . . الحق أقول لك إني كنت لا أشعر أن هذا هو رمضان
ولا أكاد أصدق أن صياحى مقبول .. أهذا هو رمضان ؟ .. من
يقول هذا ؟... أين الأولاد الذين يطوفون بالمصاييح فيها الشموع
الموقدة ؟... أين صيحات فرحهم وسرورهم بليالى رمضان . .
أين السهرات اللذيذة ... سهرات الإخوان في البيوت . . . إني
أحس في هذه الشقة الضيقة التي نساكنها أني يتيم ... صحيح ! »
قلت : « أولست يتيماً ؟ . . »

قال : « أعني أني أشعر بوحشة . . . والباقي من عمرى قليل ،
وكنت أرجو أن يتركبنى أقضيه في بيتي ، وبعد أن أموت يمكنهم
أن يصنعوا ما شاءوا . . وأظن أنه هذا عدل »

قلت : « عدل ! .. من يدري ؟ .. هل من العدل أن تفرض على ثلاثة أو أربعة ضرباً من الحياة لا يوافق إلا واحداً هو أنت .. ربما كان العدل أن تحتل أنت ما يوافق الأربعة ... على الأقل هذا أقرب إلى العدل أو أشبه به .. من يدري ياسيدى ! .. »

قال : « إني أنظر إلى فائدتهم . . نحن الآن نخسر خمسة جنيهات كل شهر أجراً للسكنى ، ولو كنا في بيتنا لاستطعنا أن نقتصد هذا المبلغ أو أن ننقده فيما هو أولى وألزم .. أأستوافقني ؟ »

قلت : « تسألني الآن . فجوابي نعم ! ولو سألتني قبل عشرين سنة لكان جوابي لا . . الشباب يفعل ما يعجبه لا ما ينفعه .. ينفق بلا حساب لأنه يشعر بفيض الحيوية ولا يشعر بالحاجة إلى التدبير والاعتقاد .. مليونير .. كيف يبالي بالقروش والملاليم .. »

قال : « ولكن ألا ينبغي أن يفكروا في المستقبل ويعدوا العدة للغد .. »

قلت : « إن هذا يكون أحجى ، ولكن الشباب رأسه مثل التليفون .. أعني أنه يستطيع أن يقصى السماعه عن أذنه ويضعها فلا يسمع إذا هم صوت النذير بالكلام الثقيل . . »

قال : « يا شيخ لا تقل هذا . . إنه جنون »

قلت : « صدقت . . إنه جنون . . ولكنه جنون القوة . . والشباب ينفض عن نفسه الهموم كما تنفض عن ثيابك التراب بأصبعك . . بلا عناء ولا اكتراث . . في وسعه ذلك لأن عباب

القوة زاخر . . والعقل يحى . . مع الضعف . . والحساب له وقته . . أوانه عندما يحس المرء بأنه بدأ ينفق من رأس ماله . .
ياسيدى هل تعرف مهندساً استطاع أن يوصل بوابات الخزان فى إيان الفيضان . . إنما يكون الخزن ويتيسر التدبير عندما تفر قوة الماء الدافق ويؤمن شرانده على كيان الخزان . . كذلك الإنسان . . هل كنت تنفق بحساب دقيق فى شبابك ؟ . . «
فأطرق، فقلت: « إنك تنسى أنك كنت كذلك..لو استطاع الكهول أن يذكروا كيف كانوا فى شبابهم ولم يستغرقهم الإحساس بالحاضر وحده . . لعذروا . . »

قال : « يعنى أنك موافق على ظلمى »
قلت : « اسمع . . لو كان أبى حيا لما صبرت على معاشرته ولا أطلت الحياة معه فى بيت واحد وتحت سقف واحد . .
فأبناؤك خير منى ألف مرة »
قال : « إن لك أبناء »

قلت : « نعم ولا أسف ولا سرور .. وسأعنى بأن أدعهم يحيون حياتهم وحدهم وعلى هواهم حين يستغنون عن هذه التكاأة التى هى أنا »
قال : « إنى لا أضيق على أبنائى . . أنا معهم كأخيم . . »
قلت : « ليس فى وسعك أن تضيق عليهم ..وحسبك منهم أنهم أكرم من أن يضيقوا عليك ..المثل يقول: إنك لا تستطيع أن تأخذ

١٠٣

زمانك وزمان غيرك.. ولو استطاع الإنسان ذلك لما كان عدلاً .
 قال : « صحيح . . بس مشوار من العباسية إلى السيدة ! »
 قلت : « ألا تعلم أن الله خلق الترام ؟ »
 قال : « ولكنى أحب المشى . . مفيد »
 قلت : « فى وسعك بفضل أبنائك أن تستفيد جداً الآن
 من المشى . »
 ثم تركنى إلى نافذتى أطل منها على الأجيال المتباينة من
 الناس ، وكل له تفكيره فى الحياة .

١٦

هل صحيح ما يقول الشاعر إن عين الرضا عن كل عيب
 كليلة ؟ . . لا أدرى فقد صار كل شىء يحيرنى وما من أمر
 إلا أرائى يبدو لى فيه رأيان أو مذهبان ، لطول ما عودت نفسى
 أن أنظر إلى « الجانب الآخر » ، فلو أئى كنت قاضياً لظلت
 أحكامى تدور فى نفسى ولا يجرى بها لسانى أو يخطها قلمى .
 وليس هذا من التردد ، فإن من كان ضيق الصدر متنبه
 الأعصاب مثلى قلما يتردد ، وما أكثر ما يؤثر الحزم والبت
 وإن كان فى شك من الصواب كبير . ولكنما هذا من حب

الموازنة والرغبة في إنصاف كل جانب من جوانب رأى . وقد قلت لنفسى وأنا قاعد أتدبر قول هذا الشاعر القديم إن أعظم الرضا رضا المرء عن نفسه . أم ترى هذا ليس من الرضا ؟ . . . لأدرى أيضا . . . وأخشى أن أظل لا أدرى فلا أخرج بشيء أبدا . . . ولو أنى أعطيت نفس إنسان غيرى لما قبلت ، ومع ذلك لا تخفى على عيوبى وتقائصى من مادية وأدبية ومن بدنية ونفسية أو عقلية فأنا أعلم أنى . . . ولكن هل من الضرورى أن أفصح نفسى وأهجوها إلى الناس ؟ . . . ومن دلائل الرضا عن النفس ، على الرغم من الإحاطة بعيوبها والفتنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها ، أنى أستخف بهذه العيوب ولا أبالى أن أذكرها ولا أعابأ شيئا إذا رأيت الناس يعرفونها كما أعرفها . وإنى لأدرك بعقلي أنها نقائص ومذام ، ولكنى أرائى أتخذ أحيانا من المعالنة بها مفخرة ومحمدة ، ولست أستخف بها فى الحقيقة لكنما أحاول تهوينها على نفسى حتى لا يكربنى أمرها ولأظل محتفظاً بحبي لنفسى ورضائى عنها وغرورى بها ، وحب النفس من حب الحياة . وتذكرت وأنا أقلب هذا وأديره فى رأسى مقالا أو فصلا لأديسون الكاتب الإنجليزى المعروف — أم ترى لا يقرأه أبناء الجيل الجديد ؟ ! — يتصور فيه أن الله جلت قدرته أذن للناس أن يخلعوا ويرموا ما لا يرضيهم من أجسامهم ، فهذا رى أنفه ،

وذلك ألنى بأذنيه . وأخرج الثالث عينيه وقذف بهما ، ونزع رابع ساقه وطرحها ، وهكذا حتى صارت الأعضاء والجوارح المرمية المزهود فيها كوماً عالياً . وعاد الله فأذن لهم أن ينتقى كل واحد من هذا الكوم بديلاً مما زهد فيه ورماه ، فأقبلوا يقبلون ويبحثون ، وأخذ كل واحد ما أعجبه ووضع موضع العضو المتزوع ، ثم نظروا بعد ذلك إلى أنفسهم فلم يعجبهم حالهم ، ولم يرضوا عن أنفسهم ، واستبشعوا ما أخذوا بديلاً مما نزلوا عنه ، فجأروا بالشكوى إلى الله تعالى وتوسلوا إليه أن يأذن في أن يسترد كل منهم أعضائه الأصلية . فتقبل الله دعاءهم رحمة منه بهم ، فما أسرع ما خلعوا ما استعاروا واستعادوا ما كانوا يسخطون عليه ويتبرمون به .

وهذه القصة الخيالية تدل على أن المرء لا يسعه إلا أن يفتن إلى حقيقة نفسه . ولكن إدراكه لعيوبه لا يمنع الحب والإيثار . وأحسب أن من هنا ما يسمونه « مركب النقص » أى معالجة الإنسان مداراة عيب يثقل على نفسه الشعور به ومحاولة تعويضه من ناحية أخرى . والمقارنة والامتحان هما باب المعرفة ، ولا سبيل إلى هذا الذى يسمى « مركب النقص » إلا بعد المعاناة ، أى الامتحان والمقارنة ؛ ولو امتنعت أسباب المعاناة والمقارنة بينه وبين غيره لما شعر المرء بنقص فى نفسه أو فى بدنه ، ولما

أحس الحاجة إلى مداواة النقص وسر العيب بالتماس الصحة أو القوة في ناحية أخرى .

وأراني لا تخفى على عيوب أبنائي ، وهم أحب خلق الله إلى بعد نفسي ، كما لا أحتاج أن أقول ، فما أعدل بنفسى أحداً . وما آثر ما سمعت أمي رحمها الله تقول ، إذا رأيتني أشكو ألماً ، أنها تؤثر أن تكون هي المصابة ، وأحياناً كنت أسمعها تدعو الله أن يتوفأها قبلي ، فأنكر هذا عليها في سرى ، وأعجب كيف يمكن أن يتمنى إنسان أن يموت قبل غيره . هذا إحساس لا أستطيع أن أدعيه . ولو أتى خيرت أن أموت قبل أولادى أو أن يموت أولادى قبلي لما رأيته أحد أتردد أو أتخير . وربما أظهرت التردد نفاقاً وسراً للأتانية الصارخة ، ولكن هذا لا يكون منى إلا نفاقاً وكذباً على الله والناس لا أكثر ولا أقل . وكثيراً ما سألت نفسى : أترى الرجل غير المرأة ؟ .. وأنا أومن بأن أى كانت غلصة صادقة السريرة ، وقد كانت الدنيا كلها لا تعدل عندي قلامة ظفر من أصغر أصبع في رجلها ، فهل تراها لو أن الأمر كان جدياً لا تردد في إثباتى على نفسها ؟ . . من يدري ؟ . . الرجل غير المرأة على التحقيق . . . وشعور الأب غير شعور الأم . هى حملته تسعة أشهر على قلبها ، فهى تحس أنه قطعة منها بالمعنى الحرفى لا مجازاً ، ومن أين يتأتى للرجل مثل هذا الشعور ، وهو لم يعان

شيئاً ولا يدرى أكثر من أن امرأته جاءت به غلام أو بنت قد لا يكون له رغبة فيه أو فيها ؟ . . فأنا أستطيع أن أصدق هذا الإيثار من المرأة . ولكنى لا أستطيع أن أصدق أن يكون الرجل مثلها إيثاراً لابنه على نفسه — على الأقل فيما يخص الحياة — إلا إذا كانت نسبة عناصر الأنوثة في نفسه كبيرة .

ويحضرنى الآن بيت قلته من قصيدة نسيها ، وأظنه كان ختام القصيدة ، وهو :

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها فأشهد هذا النحب يقضيه عالم
وعيب البيت فى نظرى أن فيه مغالطة واضحة — على الأقل
لى — ذلك أنى لا أتمنى أن أكون آخر من يبقى فى الدنيا لأرى
كيف يفنى العالم . بل لأنى لا أريد أن أترك الدنيا ! فإذا
كان لا بد من تركها والخروج منها فلتخرب قبلى أو فليكن موتى
هو الإيدان بخرابها واحياء هذا العالم كله . ولم أستطع وأنا أنظم
البيت أن أختزن كل هذا فى شطر واحد فجاء البيت غير دقيق
فى التعبير عن حقيقة ما فى نفسى .

وقد أحببت مرات كثيرة — لا أعدد لها فى الحقيقة — فإنى
أبدأ كما قال فى الأستاذ العقاد :

« أنت فى مصر دائم التجديد بين حب عفا وحب جديد »
والسبب فى ذلك أن عمر الحب عندى لا يطول إلا ساعة أو

ساعتين أو ليلة أو ليلتين — إلى أن أمل والسلام — وما من واحدة أحببها إلا تمنيت على الله أن يهبني القدرة لأصلح بعض ما لا أرضى عنه ، فأملأ هذه الساق وأديرها ، وأعالج الترهل الذى يبدو لى فى الثديين مثلاً أو الردفين ، وأصلح الأنف ، وأخفف التواء الذى فى أرنبته . وأرسم الحاجيين. رسماً جديداً يكون أقرب إلى ذوقى ، وأرابى فى التناسب ، وأعالج نفسها أيضاً علاجى لبدنها ، وهكذا إلى آخره ، فما بى حاجة إلى الإطالة وليس هــ ! من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى . . حاشا وكلا . : وإنما هو من اشتاء الكمال كما أتصوره ، ولا كمال فى الدنيا مع الأسف !

وقد صدق الشاعر فى الشطر الثانى من بيته كما لم يصدق فى شطره الأول ، فما من شك فى أن عين السخط تبدى المساوى . وثم عيون أخرى كثيرة تبدى المساوى غير عين السخط ، وفى وسعنا أن نتسامح مع الشاعر المسكين وأن نقول إنه يعنى بعين السخط كل عين تبدى المساوى ، وإنه لم يرد القصر ولا التخصيص . وأسأل نفسى وأنا أكتب هذا الفصل : « ماذا أخطر ببالك هذا البيت ؟ » والحقيقة أنى لا أدرى سوى أنى أردت أن أكتب كلاماً فحصرنى هذا البيت ، فما أكثر الكلام الفارغ وما أسرعه إلى اللسان !

فى كل يوم يصبحنى ولدائى بالسؤال عن « الحروف »
 أين ؟ . . ومتى يجيئ ؟ . . والجواب سهل ، وفيه لمن شاء الاقتناع
 مقنع ، فإني أؤثر أن يجيئ فى اللحظة الأخيرة ، فلا يقضى فى
 ضيافتي إلا بضع ساعات ، ثم يصبح وقد أراحتنا منه السكاكين
 المسنونة والسواطير الحامية . ولكن الطفل طفل ، وليس من المعقول
 أن تطالبه بأن يشب عن الطوق قبل الأوان . ولو فعلت لآذيت
 طفولته التضيرة وقمعت صباه الغض وأفسدت عليه حياته كلها
 بعد ذلك . وكل ما يعنى الطفل من خروف العيد أنه يلعب
 به ويتسلى بأن يسمعه يقول « ماء » ، وأن يراه بهم بأن ينطح ،
 وأن له ذيلًا يشده منه وأذنا مسترخية يضع فيها قشة فيهر الحروف
 رأسه هزًّا عنيفاً . وكثيراً ما يخطرلى وأنا أتدبر حال الأطفال ،
 وما يصدر عنهم ، أن الطبيعة البشرية ليس فيها رحمة ، وأن كل
 صفات الخير فى الإنسان تكلف . أعط الطفل عصفوراً ولا
 تقل له شيئاً ولا تنبهه إلى واجب الرفق وانظر ماذا يصنع . وقد
 كنا جميعاً أطفالاً ، فنحن نعرف ما يصنعون ، ولا نجعل أنهم
 يربطون رجل العصفور بخيط ويلعبون به ولا يدركون أنهم

يعذبونه ، ولا يكادون يصدقون ذلك حين تنبههم إليه وتناشدهم أن يرجعوا ضعفه . وليس من القدح في الإنسان أن نقول إن كل صفة من صفات الخير فيه تكتسب بالرياضة والتدريب والتلقين . والحقيقة أن الإنسان في الأصل ليس أكثر من حيوان ، وهو لا يعرف خيراً ولا شراً ، وإنما يعرف أنه يطلب الشيء أو ينفر منه مدفوعاً إلى ذلك بغرائزه . ولو ترك شأنه بلا تهذيب أو تثقيف أو صقل لما صنع إلا ما تغريه به هذه الغرائز . ولا ترك إلا ما تغريه بتركه هذه الغرائز أيضاً كالحیوان الأعجم سواء بسواء . ولا عسر في تصور هذا ولا مشقة ، فإن الحيوان أماننا ، وعليه نستطيع أن نقبس بلا خوف من الغلط . ومن كان يقول غير هذا فهو لا يتكلم بعقله بل بهواه وبشعور الاستنكاف الشخصي من أن يكون هو حيواناً كالقط والخروف والثور والحصان والحمار والذئب والثعلب إلخ ، إلخ . ولا محل للاستنكاف والأنفة ، فما نتكلم إلا عن الأصل لا على ما أصارنا إليه التهذيب والصقل . ومع ذلك ما على من شاء أن يعرف قيمة الصقل والتهذيب إلا أن يتدبر ما يصدر عن الإنسان حين تجتمع به غواطفه وشهواته .. ادخل على أرق الناس والطفهم وأسلسهم طباعاً وألينهم عريكة وهو في مجلسه بين إخوانه الذين يوقرونه ، والطمه على وجهه لطمه قوية تدبر الرأس وتطير العقل ، وانظر ما يكون من هذا

الإنسان المهذب الرقيق . وتأمل ما يبقى من صقله ودماثته . وقس على هذا سائر ما تحدثه الإحساسات والعواطف الغنيمة .

بل الإنسان قد بز كل حيوان في الهمجية والحيوانية ، لأن ما يفعله الحيوان في مواسم معينة ليس إلا ، يفعله الإنسان في كل يوم بإرادته لا طوعاً للغريزة بمجرد ما . والسباع الضارية مثلاً لا تقاتل جماعات منها جماعات أخرى—أريد أن أقول إن جماعات من الذئاب لا تقاتل جماعات أخرى من الذئاب ، ولا الكلاب تفعل ذلك ، ولا الأسود ، ولا الهرة إلى آخر هذه الأنواع ، ولكن الإنسان وحده من بين الحيوانات جميعاً يفعل ذلك الذي نسميه الحرب . وما الفرق بالله بين افتراس الأسد بقرة مسكينة أو غيرها ، وبين ذبحنا للأبقار والخراف والعجول ؟ . . كل ما هنالك من الفرق أن الحيوان يفعل ذلك بأسنانه وأظافره ونحن نفعله بالسكين ؛ وهو يأكل ما يفترس نيئاً ونحن نأكله نيئاً أو مطبوخاً . فرق في الشكل لا في الطبيعة والجوهر . ونحن بعدُ أعرف من الحيوان بأساليب الافتراس وأقدر منه على تذوق لذاته . . . !

وأقول للصبي الذي يلح على بطالب الحروف قبل العيد بأسبوع على الأقل : « إنه للذبح ، أليس كذلك ؟ ولئن نذبحه قبل ذلك ، فما حاجتنا به الآن . »

فيعترف ويقول : « ولكن يا بابا . . . ولا يسعفه وجهه — لا —

للاعتراض ، فيتمتم ، ثم يمضى فيقول : « كل الناس اشتروا الحرفان »
فيخطر لى أن هذا المنطق ليس وفقاً على الأطفال ، وأننا
نحن الكبار أيضاً مثلهم ، يسوء الواحد منا أن يحرم ما يرى
غيره حاصلاً عليه . ومن أمثالنا : « كل ما يعجبك والبس ما يعجب
الناس » والرجال يقلد بعضهم بعضاً وكذلك النساء . والتقليد فى
النساء أكثر ، وهن عليه أجراً وبه أشد عناية ، وتأمل كيف تنظر
المرأة وتقيسها وتدير عينها صراحة فى ثيابها وتفصيلها وفيما على وجهها
من أصباغ وفى طريقة تصفيف شعرها وترجيئه . . .

وقلت لغلامى : « ولكن أين نضع الحروف المحترم . . فى الشرفة ؟ »
فقال بلا تردد : « ولم لا . . ما المانع ؟ »

آه ، ما المانع عنده من وضع الحروف فى الشرفة أو على
سرير النوم أو فى خزانة الثياب ؟ . . إن اللائق وغير اللائق
مسألة يكتسب الإنسان الشعور بها والإدراك لها من مبلغ التأثير
بتقاليد الجماعة واعتياد الخضوع لها . والجهل بالتقاليد والعادات
يعنى الإنسان من الشعور بالحاجة إلى مراعاتها ، فالربى الذى
لا يعرف عادات المدن لا يبالي أن يفعل ما يفعله فى قريته
الصغيرة ، ولا يخطر له أنه يأتى شيئاً يضحك منه الناس أو
يدفعهم إلى الاستنكار والسخط . والطفل الحديد فى الدنيا
كالربى الذى يجىء إلى القاهرة أو يذهب إلى باريس أو

لندن وهو جاهل بتقاليد الحضارة فيها ، فهو لا يستغرب أن يربط الحروف في الشرفة ، أو يروح ويحيى في حجرة الاستقبال ، أو ينام على السرير ، أو يأكل برسيمه في المكتبة . بل الطفل يجد في هذا متعة نادرة ، ويضحكه جداً أن يرى الحروف يأكل البرسيم الذى يضعه له على المكتب ، وحسبه باعثاً على الضحك ومدعاة للتسلية أن هذا خلاف المؤلف .

وقلت : « ولكن يا أخى أين ينام خر وفك الفاضل ؟ »

فضحك وقال : « معى . . يجانى »

فصفق أخوه موافقاً .

وفي العام الماضى والذى قبله أذكر أن هذين اللعين كانا يستيقظان في البكرة المظلولة ويوقظان أو يزعجان على الأصبع ، ويطلبان أن أنهض لأحضر ذبج الحروف ؛ وكنت أحتال حتى أنصبيهما عنى وأقنعهما بتركى لأنام ، وكفى بهما شهوداً للمذبحة ... وأحد هذين الغلامين يسقم ويمرض إذا وقعت عينه على قطرة دم ، ولكنه يشهد ذبج الحروف وسلخه ويرى دمه يسيل فلا يضطرب ولا يتألم ولا يصيبه سوء ، بل يعود من هذه « الفرجة » مشرح الصدر قريح العين ويظل أياماً يتحدث بها ويصف ما كان فيها . قطرة دم واحدة من سن سقطت في فمه تلير رأسه وتغشى نفسه وتصدده عن الطعام واللعب يوماً كاملاً على الأقل ، وملء

طشت من دم الحروف بفرحه ويسره ! وهو غلام يحزنه أن يسمع أحداً يتوجع . ولكنه لا يبالي ألم الحروف وقشعريرته «وماءاته» حين يقيده الجزار ويضع على رقبته السكين ؛ وهو في العادة يأبى أن يأكل لحم حيوان أو طير إذا رآه يقطع في المطبخ ولكنه يرى سلخ الحروف فلا تتحرك شعرة في رأسه ؛ ويرى الساطور يهوى على جسمه ويقطعه فلا يشعر بدوار ولا يصدده هذا عن الأكل . كلا . . لم أخطئ حين قلت إن من يلاحظ الأطفال لا يسعه إلا أن يقول إن الإنسان لا أكثر ولا أقل من حيوان ، وإنه في الحقيقة لا يعرف شراً أو خيراً ، وإنما يعرف غرائز طبيعتها ؛ وما الخير والشر إلا وسيلة لتنظيم جماعة الإنسان لجعل حياتها شتملة بعد أن ارتقى عقل الإنسان عن عقل الحيوان .

١٨

قلت لصديقي ونحن خارجون من السينما ، أو لعلنا كنا داخلين فما أذكر الآن : « يا أخي أحسب أن من الحسارة علينا أننا خلقنا في هذا الزمان ، ولو تأخر بنا الحظ جيلاً آخر لكان عيشنا خليقاً أن يكون أطيب وأرغد ، فإن هذا عصر انتقال لن تستقر فيه الأمور على حد مزيج » .

فوافق ، واستطردنا إلى حديث آخر ، ولكنى ظلمت أفكر فيما قلت فبدأ لى أئى أخطأت . ولا نكران أن زمننا هذا زمن انتقال ، ولكن هذا حال كل زمان ، فما نازم أمور الحياة حداً تنهى إليه ، ولا تكون قط على حال لا يتغير أو يتبدل ، وكل عصر عصر انتقال . والتحول هو قانون الحياة فلا وقوف ولا رجوع لأن هذا وذاك مستحيلان فى الحياة . ولو كنا خلقنا فى زمن غير هذا — قبله — لكننا أحسنا ما نحسه الآن من أننا فى عصر انتقال ، وأننا نعانى من جراء ذلك اضطراباً وقلقاً وقيوداً كثيرة تثقل علينا ، ونعتقد أن الأيام ستصدها عن الناس وتعفيهم منها ، ولتوهبنا أن الناس حينئذ سيكونون أسعد وأرغد عيشاً وأكثر حرية وأقل شعوراً بالتقلقل والاضطراب والحيرة بين القديم المشنوء الذى يتزلزل والجديد المأمول الذى بدت بشائره . وحضرتى وأنا أفكر فى هذا مثال قريب ، فقد كنا فى الجليل الذى مضى نسخط على الحجاب وما يقتضيه من التفريق بين الرجال والنساء ، وكانت بشائر السفر قد بدت ، ولكن أملنا يومئذ فى إدراك عهده والانتفاع به قبل أن تعلو بنا السن وتفتر الحيوية ويفسد علينا الأمر كله — كان يبدو لنا بعيداً . وقد أدركنا زمن السفر بأسرع مما كنا نتصور ، ورثبنا إليه فى أوجز مما كنا نقدر وقبل أن ترتفع أسنانا وينضب معين

الحوية فينا ، غير أنا بعد أن صرنا إلى هذا الحال الحديد الذي كنا نحلم به ونتطلع إليه ونتخيل أن الحياة ستكون به أهنأ وأطيب — لم نرض ولم نقنع . ولسنا الآن في حاضرننا ننظر إلى ما كان ، بل نحن ننظر إلى تيار الزمن واتجاهه ، ونقول إنه ينحدر إلى ساحة من الحرية أوسع وأرحب ، ولا سيما بعد أن عرف الإنسان ضبط النسل . والشجرة — كما لا أحتاج أن أقول — تعرف بشمرها ، فحيث لا توجد ثمرة لا يخطر للمرء أن هناك شجرة ، فهي غير موجودة فيما يعلم ، وإن كانت في الواقع هناك .

لا . . . لم نخسر بأن خلقنا في هذا الزمان ؛ وليست العلة أننا موجودون في زمان دون آخر ، بل العلة أن العمر إلى انتهاء ، وأن الحياة إلى نفاد كائنا ما كان الزمن الذي نحن فيه ؛ ولا خير في تقطيع النفس حشرات على ما عسى أن يكون الغيب منطويأ عليه ، وأحجى بالإنسان أن يقصر همه على حاضره ، فإنه هو الحقيقة التي يضيع كل شيء إذا هو ضيعها . ومهما يبلغ من اتساع نطاق الحرية في المستقبل فإن حياة الجماعة لا تنتظم إلا بالقيود والحواجز والأسداد . وستظل هناك قيود من ضروب شتى .

ومع ذلك ماذا ينقصنا من الحرية في زماننا هذا؟.. ألسنا نضع ما نحب كما نحب وحينما نحب؟.. ولا شك أن هناك قيودأ وأغلالا غير قليلة أو هينة ، ولكن هذه القيود هي التي تكسب الحياة الطعم

وتفيدها المزية والفضيلة. ولست أحاول أن أعزى نفسى بهذا الكلام أو أغالطها به، بل أنا أؤمن بأن الأمر كما أقول والحال على ما أصف. وتصور أن الماء المتحدر من الجبال أو غيرها لم تعترض طريقه الأسداد ولم يمنعه شيء أن يظل يتدفق ويتنثر على وجه الأرض حتى يذهب أو ينتهى إلى البحر، أكان من الممكن فى ظنك أن تتكون بحيرة مثلاً ؟ . . . وقد لا تكون ثم حاجة إلى البحيرة، وقد تحتاج الجماعة فى وقت ما إلى محوها من الوجود، ولكن هذا لا يؤثر فى القضية ولا ينبى أن البحيرة إنما تتكون بفضل الأسداد التى يلقاها الماء وهو يجرى.

والطيارة التى تحلق فى الجو وتنقلنا إلى حيث نحب، وتقصر المسافات، وتطوى الأبعاد، والتى نعدّها من آيات هذا العصر، كيف كان يمكن أن تفعل ذلك لولا مقاومة الهواء لدفع المحرك ؟ بل كيف كان يتسنى أن تتحرك لولا هذه المقاومة ؟ ! ولست أعرف شيئاً فى هذه المسائل العلمانية، فإنى من أجهل خلقه سبحانه وتعالى وتنزهه عن العبث، ولكنى التفت إلى هذا الأمر يوماً وكنت فى طيارة، وإنا فيها لمسرورون مغتبطون بهذا التحليق. وإذا بها تسقط كالحجر مائة وخمسين قدماً على ما قيل لى فيما بعد، وكانت هنيهة قصيرة جداً، ولكنها على قصرها الشديد كانت أقسى ما جربت فى حياتى، فقد أحسست أن قلبى

صار فى حلقى من فعل السقوط المفاجئ لا من الخوف ، فما اتسع الوقت لخوف أو رجاء . ثم عادت الطيارة فضت بنا فى طريقها وكرت إلى مثل الارتفاع الأول ، فلم أفهم سبب هذه السقطة المزعجة ؛ فلما نزلنا كدت أنسى أن أسأل عن السر فيما حدث . ولكنى تذكرت بعد أن مشيت خطوات ، فارتددت إلى الطيار فقلت له : يا أخى لقد سقطنا فى الهواء فما سبب ذلك؟ قال : هل أحسست شيئاً ؟ . . قلت : كيف لا أحس وقد كادت أنفاسى تنقطع ؟ . . قال : لقد صادفنا فراغاً . قلت : كيف ؟ ! واستغربت ، فبين لى أن بعض طبقات الجو تخلو لأسباب شتى — نسيها — من الهواء فتصبح فارغة ، فإذا دخلت الطيارة منطقة الفراغ لم تستطع أن تجتازها لأن الهواء هو الذى يعينها بمقاومته على الطيران ، ولهذا تسقط حتى تخرج من المنطقة الفارغة فيتيسر لها أن تمضى فى طيرانها ، وذكر لى أن المنطقة التى صادفناها كانت من أكبر ما لقي من الفراغ مذركب طيارة . وقد علق بذهنى هذ ودار فى نفسى من يومئذ فأضفته إلى ما كنت أعرف من فضل المقاومة بل ضرورتها ، فلانى عاجز عن تصور حياة لا يلقى فيها الحى مقاومة . وكيف تكون ياترى هذه الحياة إذا أمكن أن توجد حياة على هذا النحو ؟ . . لا أدرى ، ولا أحسب أن أحداً يستطيع أن يزعم أن فى وسعه تخيلها . . .

ماذا يدفع فيها إلى العمل ويغزى بالسعى . ويبعث على الطدوح ؟
الحب الذى هو الوسيلة إلى حفظ النوع فى الدنيا ، كيف
يكون حينئذ ولا مقاومة هناك ولا عائق ولا صعاب ولا عراقيل
ولا حواجز من العرف أو القانون أو غير ذلك ؟ . . أترأه يصبح
لهواً وعبثاً ومسلاة ؟ . . وكيف تكون له لذة اللهو ومتعة العبث ومزية
التسلى وهو لا يمكن أن يوجد أصلاً ؟ . . أم ترى ينحط فينقلب
مجرد رغبة عارضة واشتهاء زائل بزوال دواعيه الوقتية ؟ . . وكيف
تنشأ الرغبة ؟ وماذا يشحذ الشهوة ولاشئ هناك من قبيل الموانع ؟ !
ودع الحب وانظر فى غيره واسأل نفسك ، ماذا عساك أن
تطلب حينئذ ولا عسر هناك ولا عناء ولا خوف من حرمان ؟
لأنه لا عقبة هناك ولا صعوبة ولا مقاومة من الأحوال أو الحظ
أو الناس أو التنافس أو غير ذلك مما تكون به المقاومة .

ويطول بى الكلام إذا أنا أحببت أن أتقصى وجوه هذا
الأمر . وما الداعى إلى الإطالة والمسألة واضحة . كلام لم أخسر
بأن خلقت فى هذا الزمن ، ولا خسر أحد شيئاً بأن خلق فى
زمنه ؛ وإنما ينظر الإنسان إلى ما هو مستطيع ويقبسه إلى ما
يشتهى فيرى البون عظيماً والبعد كبيراً والمسافة طويلة بين المطلوب
والموجود ، فيتوهم أن ذلك إنما كان هكذا لأن فى الزمن عيباً وفى
أحواله فساداً ، وأنه لو كان فى زمن آخر لكان حقيقة أن يكون

أمله أقرب منا لا وسعيه أعظم توفيقاً . وهذا وهم كما قلت ، فإن رغائب الإنسان في أى زمن أكثر مما يبلغ وينال . والذي يسمح لرغبته بأن تطغى إلى هذا الحد حتى لتصور أمر الحياة على هذا النحو المقلوب تكون شهوته أقوى من إدراكه أو إرادته أو أعصابه إذا شئت .

١٩

وجدت بالتحجربة أنى لا أستطيع أن أحب كما تريد المرأة من الرجل . ولست أعنى أنى عاجز عن الحب ، فإنا أعرف لى فى هذه الدنيا عملاً غير ذلك ، فأنا أحب الطعام الجيد والشراب اللذيذ والنوم الهنىء والراحة التامة . وأحب الكتب والصدىق الموافق الذى لا ينفص الحياة على صاحبه بطول المخالفة وكثرة المكابرة ودوام الشدوذ . وأحب أشياء كثيرة لا أستطيع أن أحصياها . ولكنى أحب نفسى ، وهذا هو البلاء الأكبر . وليس هو ببلاء إذا أردت الحق ، ولكن المرأة تراه كذلك . وعندها أنك تبغ نفسك حين تحبها . ولا بأس بأن يبيع المرء نفسه أحياناً ولكن يبيعها لا يستلزم أن تترك حبها وتكف عنه . وهل يعقل أن تفيض حبك على الناس والأشياء ولا تخص نفسك ببعض هذا « الفيضان » ؟ غير أن غير المعقول عندك هو المعقول

عندها ، والذي لا يجوز خلافه ولا صبر لها على سواه ، فهي من أجل ذلك تسود عيشك وتريك النجوم في الظهر الأحمر . على أن الرجل يستطيع أن يخفى حبه لنفسه أو يمويه ويستره بما يحجبه ؛ ولا أظن أن في هذا عسراً ، فإنه يفعل هذا كل ساعة ، ولا يزال يعزو أعماله إلى بواعث أخرى يظنها أشرف وأسمى من حب النفس . فهو مثلاً يأكل لا لأنه يشهى الطعام ، بل لأن من واجبه أن يحرص على أن يظل قوياً قادراً على خدمة النوع الإنساني ؛ وقس على هذا . غير أن هناك مالا سبيل إلى ستره وكنائه أو تمويهه ، إذ من الواضح مثلاً أن من العبث أن تنظر إلى اليمين وأن تروح تزعم أنك إنما كنت تنظر إلى الشمال ، فإن اتجاه العين لا يتحقق ولقطة الوجه لا مغالطة فيها . فاذا كانت النظرة إلى امرأة وأنت مع أخرى فالويل لك ولست مسئولاً عنك .

قالت لي مرة إحداهن وأنا معها وقد رأت عيني تدور :

« بص هنا » ، وجذبتني من ذراعي ، فقلت وأنا مستغرب :

« ولماذا لا أبص هناك ؟ » قالت : « كده ! » بهذا الإيجاز الذي لا يفيد شيئاً ، فقلت : « كده يعنى ماذا ؟ » قالت :

« كده ! » ولم تزد ، فضاق صدرى ، فقد عجزت أن أفهم سر هذا الأمر المتعب أو حكمته ، وقلت : « ياستى . . إن الله قد خلق عيني متحركة غير ثابتة ، فكيف ألزمها الثبات ؟ ثم هيبى

استطعت ذلك فلماذا أتكلفه ؟ » .

فقالت : « عيب »

فصحت : « عيب ؟ . . ياخبر أسود » .

فقالت : « لا يابق أن تنظر إلى الفتيات في الطريق . »

ففهمت ، ولكنى لم أقتنع وقلت : « إن لى على هذا رداً طويلاً ، فهل تسمحين بأن تسمعيه ؟ »

قالت بتهكم : « نعم ياسيدى . . . »

فتجاوزت عن لمحة السخرية . إذ حسبي موضوع واحد للخلاف ، وقلت : « أولاً ، لماذا تظهر الفتيات لنا معاصر الرجال في الطريق إذا كن لا يردن أن ينظر إليهن أحد ؟ ثانياً - وهذا أهم - لماذا يظهرن في حفل من الزينة إذا كان لا يرضيهن أن يدير الرجال فيهن عيونهن ؟ ثالثاً - وهذا هو الأهم - بأى وجه ألقى الله يوم القيامة إذا كنت أغمص عيني وأتكلف العمى ولا أنظر إلى مخلوقاته التى أبدعها ؟ . . وقد خلق لى عينين فلا عذر لى ، ورزقنى غير ذلك وسائل القدرة على إدراك معانى الجمال فى خلقه سبحانه . . أليس من الواضح أن مما ينجلنى يوم القيامة أنه تعالى خلقنى بصيراً فأثرت العمى ومحسناً مدركاً ففضلت الجهل والبلادة ؟ . . وأخيراً - لا آخرأ - ما الضرر على كل حال من النظر إلى الناس ؟ . . ماذا خسرت الفتاة التى

نظرت إليها ؟ . . . هل أنا أكلتها بعيني ؟ . . هل نقصت شيئاً ؟ . . إني أراها على العكس قد زادت . . نعم زادت . . لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ . . هل نطقك كفرة ؟ . . أقول لك زادت لأنها استفادت إحساساً جديداً مؤيداً لإحساسها بجمالها ، ولو كنت لم أنظر إليها لكانت خليقة أن يساورها الشك فيما تحس من نفسها أو تعتقد ، فأنا قد أفدتها راحة البال واطمئنان الخاطر ، وإني لجدير بالشكر على هذا لا اللوم .

فصاحت بي بعد طول الصمت : « طيب اسكت بقي . . فقلت وأنا ضجر : « هكذا أنتن يانساء . . إذا أعوزتكن الحجة قلتن طيب اسكت بقي ! . . ولكني لا أنوي أن أسكت » بقي » ، فقد مرن لساني على الدوران ، وأنا أحس اليوم أنني أوشك أن أقول كلاماً بديعاً . .

فصاحت بي : « أنا معك فكيف تنظر إلى غيري ؟ » . . فقلت - وقد فهمت : - « آه ! . . هذه هي المسألة . . قولي هذا من الصبح ياستي . . نعم أنت معي . . وإنك لحسبي من عالم الجمال والفتنة ، ولو وسعني غير هذا لما كنت حسبي . . ولكني قانع غير متذمر . . غير أنك مع الأسف لست كل النساء . . وأنت تغنين عن جنسك أحياناً ، ولكنك لا تستطيعين أن تغني عن هذا الجنس في كل حين ، وليس ذنبي أنك قاصرة . .

فقاطعتنى صائحة : « قاصرة ؟ . . . أشكرك »
قلت : « نعم ، قاصرة عن اختزال جنسك في شخصك الواحد »
فأبت أن تسمع منى بعد ذلك ، فقلت : « لا حول ولا قوة
إلا بالله . . الأمر لله . . سكتنا ياسنى فلعلك مسرورة . »
ولكنها لم تكن مسرورة ولم تغفرها لى قط . . . وأنا أقول
تغفرها بغير تعيين أو تبين ، لأنى والله لا أدرى إلى هذه الساعة
أى شىء أغضبها وأثار نقمتها على .

وحدث مرة أخرى أن كلفتنى أن أشتري لها فاكهة ، وكنت
أعرفها تحب الجواقة حباً جماً ، فانتقيت حبات طيبة الرائحة
ذكية العبق ، واشتريت لها فاكهة أخرى ، ولكن الجواقة كانت
هى المهمة التى عليها الكلام ، وذهبت بحملى إليها ودخلت به
حجرة الانتظار ، وقلت لخادمتها : « قولى لسيدتك صباح الخير
يانور العيون ، لقد حضر سيدك ونن عينك اليمنى - واليسرى أيضاً
فى الحقيقة - ومعه حمل بغير من الجواقة بل من أبداع أنواعها . »
فذهبت الخادمة وأبلغتها الرسالة ، فأطلت تلك من باب
غرفتها - بوجهها فقط - وصاحت وهى فرحة : « صحيح ؟ . .
جواقة . . حلوة ؟ ! . . »

ففتحت الكيس وأخرجت واحدة ورفعتها بين أصابعى ،
وأدبتها أمام عينها فابتسمت ابتسامة السرور وقالت : « حالا . .

حالا . . دقيقة واحدة .» ودخلت .

وبقيت أنا أتمشى فى الحجرة ، ولم يكن فيها ما يسلى المرء ، ولم يكن معى كتاب أقرأه وأزجى به الفراغ ، فجعلت أقوم وأقعد وأنظر تارة فى المرأة وأمسح الطربوش تارة أخرى وأنفص عنه ما علق به من التراب . . . ومسحت الحذاء أيضاً . . . مسحته مرتين حتى صار جلده كالمرآة ، وحتى حدثنى نفسى أن أخلعه وأنظر إلى وجهى فيه ، ولكنى خفت أن تدخل على وأنا أفعل ذلك . . . وتأملت الحرير الذى كسيت به الكراسى ، ورفعت طرف السجادة وجسستها وفركت وبرها بأصابعى ، ثم لم أجد شيئاً آخر أصنعه فى هذه الغرفة ، فانهطت على كرسى كبير وثير ، واضطجعت وفى مأمولى إذا نمت أن لا توقظنى حين تدخل . ولكنى لم أنم لأن رائحة الجواقة الذكية كانت قوية ، فقد نسيت الكيس الذى هى فيه مفتوحاً فتسور إلى أنفى أريجها وملاً صدرى وأدار رأسى ، فأحسست بالجوع ، ولكنى ضبطت نفسى وشددت على الاجام وقلت : « اللهم اخرك يا شيطان » غير أن الشيطان شديد الغواية قوى الفتنة فجعل يقول لى : « وما حبة واحدة تأكلها فتنبم بها هذه الثعالب التى تمزق أحشاءك ؟ » فقلت : « والله لقد صدق اللعين . . فلا كل حبة واحدة من الجواقة اللذيذة . ثم إن هذا عدل . .

أحملها وأحرمها . . وأكون كالعيس التي يقولون إنها يقتلها الظلم
وهي تحمل الماء على ظهورها في القرب . . أو كالحمار الذي
يحمل أسفاراً ؟ . . »

ومددت يدي إلى الكيس وأنا يقظان كنأثم ، وتناولت منه
من غير أن أنظر إليه ، وطابت الجحافة في في فأقبلت عليها
آكل وآكل — ولكن بغير احتفال والله — وإذا بصاحبتنا تدخل
مؤهلة مرحبة باسطة يدها للسلام ، ثم إذا بها تقف في وسط
الغرفة الفسيحة وعينها مفتوحة جداً على فلم أستغرب ، فقد كان
في محشواً وأسنانى تعمل دائبة كالليل والنهار . وتنبهت إلى واجبي
حين رأيته تحملق على هذا النحو ، فبلعت ما بقى في في في
بسرعة ، ومططت عنق لي سهل الانزلاق ، أعنى البلع ،
وانحنيت على الكيس لأتناوله وأقدمه إليها وأسرها به — أعنى
بالجحافة التي فيه — وإذا به ينطبق بين يدي لأنه فارغ !

والحق أقول إنى بهت لما كان يخطر لى في بال أن آكل كل
هذه الجحافة ؛ ولو أن إنساناً راهننى أن أفعل لفزعت ، وأشفتت
على نفسى ، ولكن هذا الذى لم أكن أحسب أن لى قدرة عليه
وقع اتفاقاً . . وقد سرنى هذا فى الحقيقة لأنه كان من بواعث
الاطمئنان على صحتى ، وكان جديراً بها أن تهتنى وتفرج لى ،
فإن الجحافة كثيرة ، وهى فى السوق أكوام عظيمة ، والجديد

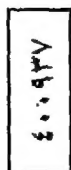
الطيب ليس بالقليل ، وثمانه شيء تافه لا يستحق الذكر . .
ولكنها وجمت يا أخي لا أدري لماذا . ووقفت لا تتحرك كأنما سمرت
إلى الأرض ، فأزعجني ذلك وخفت أن يكون قد أصابها شيء
لا قدر الله ، وأقبلت عليها أسألها عما جرى لها ؛ فلما أفاقت
أشارت بيدها - دون أن تتكلم - أن اذهب . . اذهب ولا
ترني وجهك . فاستغربت أن تلقائي بهذه الجفوة بعد ذاك
الترحيب والتأهيل والبشر الذي كان يفيض به وجهها وهي
مطلّة به من بين مصراعي الباب ، وتمنيت لو أنها تبقى أبداً
ووجهها بين المصراعين ليبقى لي بشرها وحلاوة ابتسامها .
الحق أني لا أفهم النساء . . وهل تستطيع أنت أن تفهم
كيف يفسد الحال وتقع النبوة بين رجل وامرأة من أجل أقة من
الجواقة ثمنها بضعة قروش . . إن كنت تفهم هذا فإني أحسدك
وأدعو لك بالتوفيق إن شاء الله .

١٩٩٥ / ٥٦٥٣	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4995-5	التقييم الدولي

١ / ٩٥ / ١٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

عبد القادر المازني حبر زاوية في بناء
الأديب العربي ، ويسعد دار المعارف أن
تُحيى ذكره ، فتقدم للقارئ العربي في
كل مكان هذا الكتاب الذي يغوص في
رفق ولين في أعماق النفس البشرية
فيقدم نماذج بشرية هي تعبير عن
الإنسان في كل عصر وأوان .. فأنت
حين تطل « من النافذة » ترى الحياة
نابضة أمامك ، خاصة حين يعبر عنها
قلم هذا الكاتب الكبير ..



دارالمعارف